10 me Année No. 456

Lundi - 30 - 3 - 1942

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة العاشرة « القاهرة فى يوم الإثنين ١٣ ربيع أول سنة ١٣٦١ — الموافق ٣٠ مارس سنة ١٩٤٢ » العـــدد ٤٥٦

الفهـــــرس

١٨ ٠ ٢٤

من خواطر الحرب

لا بد للاسلام من مؤتمر

جلست ذات أمسية إلى المذياع أتنقل فيه بسمعى المرهف بين برلين وبارى ولندن وموسكو وطوكيو وباريس وأنقرة، وكلها تذيع باللغة العربية، وتوجه الكلام إلى الأمة العربية. فقلت فى نفسى: سبحان الله! ما هذه العناية اليقظة بنا، والاهتمام البالغ بلغتنا وأدبنا، كأننا لا نزال نملك زمام الدنيا ونصرف عنان القدر! ثم أعلن المذيعون أنباء الحرب فى ميادينها المختلفة، فإذا هم يذكرون: أفريقية الشمالية، ومصر، وفلسطين، وسورية، والعراق، وإيران، والهند، والصين، والملايو، وسنغافورة، وجزر الهند الشرقية؛ وكلها مواطن الأمم الإسلامية، ومسارح الثقافة العربية؛ وليس من أهلها المغير ولا المدافع؛ وإنما هم كثروة الأرض وعروض التجارة خسارة للمغلوب وربح للغالب. فعدت أقول لنفسى: ما أشبه تلك الإذاعات اللينة العطوف بالرُّقى الساحرة، يسلطها المفترس على أعصاب الفريسة لتخدَّر وتنام، فلا تنشب فى حلقه ولا تضطرب فى جوفه! وما أعجب ألاَّ تشب الحرب الاستعمارية، وتتصارع الدول القوية، إلا حيث يملك العرب ويعيش المسلمون، كأنما أصبحوا سلباً لكل غاز ونهباً لكل غاصب!

ألم يكن هؤلاء الناس أعقاب أولئك الفاتحين الذين نزل

على حكمهم الدهر ودخل فى ملكهم العالم بضعة قرون ؟

أليس هذا الإسلام الذى يؤمنون به اليوم هو إسلام ذلك الخليفة العباسى الذى نظر ذات يوم إلى السحائب الجون تزجيها الرياح الرُّعن إلى أقاصى الأرض ، فقال فى لهجة تنم على العزة والجلالة والشكر : « أمطرى يا سحائب حيث شئت فإن خراجك لى » !

بلى ، هؤلاء أعقاب أولئك ، ولكن الدين الذى يعتقدونه لم يعد دين ذلك الخليفة ؛ إنما هو بقية من الإسلام الأول حالت ثم آلت إلى صوفية بلهاء لا يفيق المسوس بها من الغفلة ، ولا ينشط من الجمود ، ولا يبالى أن يبلغ ساحل الحياة مركوباً على ظهره أو مسحوباً على وجهه ! والدين والعلم مآلهما فى النفوس الضعيفة والعقول الخفيفة إلى الترهات والأباطيل : فأيلولة الكيمياء إلى البحث عن حجر الفلاسفة ، وعلم الفلك إلى التنجيم والسحر ، كأيلولة الإسلام إلى هذه العقيدة الملفقة التى زيف فيها الإيمان بالقدر حتى أهمل الناس التوقى استسلاماً للقضاء ، وتركوا السعى اعتماداً على (القسمة) . و « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال »

ولئن سألتنى بعد ذلك : هل بلّغ العلماء رسالة الله لأقولن لك : « لا » مغلّظة مكبرة مكررة ! وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة وأن عليهم تبعة

رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل ، ورجال الحكم يتصرفون بعدل أو بظلم ؛ أما رجال الدين فى ممالك الوطن الإسلامى كله فقد قنعوا باللقب والزى ، واكتفوا بالشبع والرى ، ورضوا أن يكونوا متوناً لذوى الطمع ، وحواشى لأولى النعمة ، وهوامش على صفحة الحياة !

على أن سلطان الدين أكمل وأشمل من سلطان السياسة وسلطان الحكم ؛ فإن هذين لا يتجاوزان بقعة من الأرض ولا أمة من الناس ؛ ولكن ذلك ينبسط على كل مكان فيه لله ذكر ، ويهيمن على كل إنسان له فى الإسلام فكر . وعلماء الدين هم الطوائف التى نفرت من كل فرقة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم ؛ فإذا تفقهوا ولم ينذروا ، أنكروا ما خُلقوا له ، وعصوا ما أُمروا به . وليس الإنذار أن يلهجوا بذكر الحساب والعذاب ، وإنما الإنذار أن ينبهوا المخطئ ، ويوجهوا الحائر ، ويرشدوا الغوى ، وينصبوا فى مجاهل الأرض أعلام الطريق

لو كان علماء الإسلام يعملون لكان لهم مثل ما للمبشرين والمستعمرين والمستشرقين من المؤتمرات التى تعقد العام بعد العام ، فى الدولة بعد الدولة . والله قد فرض على المسلمين أمثال هذه المؤتمرات العامة بالحج . وإذا كان وفود العلماء من الأقطار المختلفة إلى إحدى المدن تعوّقه الأهواء والظنون ، فإن وفودهم إلى مكة لا يعوّقه غير الشيطان ، ورجال الدين والحمد لله فى عصمة منه

لا بد للاسلام من مؤتمر يجمع زعماء الرأى فى أهله ليجددوا ما دَرس منه ، ويوضحوا ما التبس فيه ، وينفوا عنه ما غشيه من أساطير القرون وأضاليل النِّحل ، ويجلوه للناس كما كان صالحاً للحياة ، كافلاً للفوز ، ضامناً للسعادة

لا نطمع أن يجتمع هذا المؤتمر اليوم ، فإن الزلزلة التى لا تنفك آخذة بأقطار الأرض وأفكار الناس تجعل العقاب والسدود من دونه ، ولكنا نطمع أن يفكر أولو الأمر فيه ويهيئوا الأسباب له ؛ حتى إذا عادت السِّلم وتحلق زعماء الأمم حول الموائد الخضر لإقرار السلام الدائم واختيار النظام الملائم ، اجتمع كذلك علماء الإسلام ليعرضوا على العقول الحائرة والأجسام الخائرة نظام الله خالصاً كما أوحاه ، صافياً كما أنزله . نعم لا بد للاسلام من مؤتمر يقيم بين البَهرج والصحيح حداً من نور الحق يجتمع عليه القطيع الشارد ، ويهتدى إليه الركب المضلّل . ولكن ليت شعرى من الذى يفكر فى هذا المؤتمر ويعمل له ويدعو إليه ؟

لقد عقدنا الآمال بالأزهر فى كل ذلك ، فهل عقدناها بلُعاب الشمس ؟

كانت (جماعة كبار العلماء) معقد الرجاء ومناط الثقة ؛ وكانت هذه الجماعة فى نظامها الجديد عسيَّة أن تدعو إلى هذا المؤتمر بعد الحرب فى العيد الألفى للقاهرة ؛ وكان الظن ببرنامج الإصلاح الذى اقترحه شبابها المصلحون ، وأقره أقطابها المخلصون ، أن يكون نواة الإصلاح ونقطة التحول ؛ ولكن جنديًا باسلاً من جنود الإصلاح الدينى كتب إلينا يقول : إن برنامج الإصلاح أدركته أزمة رجعية توشك أن تخنقه فى درج المشيخة . فإن عضواً من الجماعة يوجس منه شراً ، فهو ينسج حوله الشكوك ويؤلب عليه القُوى ، وقد نجح فى ذلك !

فهل يجوز فى ظن امرئ أن يكون فى كبار العلماء من يشتبه عليه الحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد ؟ ذلك ما لا نصدقه ، ولا نود أن تجرى الأمور بما يحققه

(المنصورة) احمد حسن الزيات

بين آدم وحواء

قبل أن تثور القواصف
فوق أثباج الكوثر
للدكتور زكي مبارك

ارتاح آدم إلى كيد حواء بعض الارتياح ، وأدرك أن الرجل لا يعيبه أن يُفتن بالمرأة من حين إلى حين ، على شرط أن يظل فى الحدود التى لا تجرح كرامة الرجال

وفطِن إبليس ، لعنه الله ، إلى أن آدم أخذ يؤوّل كيد المرأة ويقسمه إلى أقسام فيها المكروه والمباح ... فطن إبليس إلى هذه الثغرة فجدّد من نشاطه واستأنف الوسواس فهتف : « هل أدلكما على شجرة الُخلد ؟ ... هل أدلكما على شجرة الُخلد ؟ ... ألا تسمعان ؟ »

قالت حواء : سمعنا وسنطيع . وقال آدم : سمعنا ولن نطيع

فغضبت حواء من جواب آدم واتهمته بالزهد فى الخلود ، وهو زهدٌ دميم ، فما يليق بالرجل أن يضيع فرصة تنجيه من الفناء ، ولو ارتكب فى سبيلها ما لا يليق

وغضب آدم من سفاهة حواء فقال : من أين عرف إبليس أن شجرة الخلد هى شجرة التين ؟ وعلى فرض أن كلامه صدق فى صدق ، فكيف يجوز أن نعصى الله لنظفر بالخلود ؟

إعلمى ، يا حواء ، أن الرزق والجاه قسمان : حرام وحلال ، وأنا لا أقبل أن نُرزَق الُخلد عن طريق الحرام ... إن اللقمة المسروقة تقف فى الحلق لحظة ، ثم تُزدرَد برفق أو بعنف . ومع هذا تبقى لها عقابيل تحزّ فى القلب إلى آماد طوال ، فكيف نستجيز الظفر بنعمة الخلود عن طريق العصيان ؟ وكيف نرضى أن نعيش أبد الآبدين فى أسر الحرام الممقوت ؟

— آدم ، أنت أحمق !

— لأنى أزهد فى الُخلد المكسوب بالعصيان ؟

— لا ، بل لأنك تجهل أن الُخلد أنفس وأثمن وأعز من أن نتقى فى سبيله الشُّبهات

— النص صريح فى تحريم هذه الشجرة يا حواء

— التأويل يلحق جميع النصوص

— إذا وُجدت الغاية التى تبيح الممنوع من التأويل !

— وأىُّ غاية أشرف من الُخلود ؟

— إسمعى ، يا حواء ، إن الُخلد غاية شريفة — كما تقولين — ولكنى أبغضه أشنع البغض ، لأنه يوجب أن أعيش فى صحبة عقلك الأجوف إلى ما لا نهاية له من الآباد ... إنى ضَجِرت ، ضجرت ، مع أن صحبتنا فى الجنة قريبة العهد ، فكيف أصنع إذا كتب الله علىَّ أن أكون من الخالدين فى جوارك يا حواء ؟

— تغضب منى يا آدم وأنا أدعوك إلى الُخلد ؟

— هو خُلدٌ حرام لا حلال ... وما يليق بنا أن نعامل الله فى كرمه بغير الامتثال

— أتصِفُ اللهَ بالكرم وهو يبخل علينا بشجرة لا يساوى حطبها درهمين ؟

— ألم أقل : إن الله يختبر قُوانا النفسية بتحريم تلك الشجرة ؟ وإذا عجزنا عن كبح النفس فى البعد عن شجرة لا يساوى حطبها درهمين ، فكيف يكون المصير لو نهينا عن شجرة مصوغة من عيون العذارى وخدود الملاح ؟ المعصية بغيضة يا حواء ، لأنها تضيفنا إلى أهل الكفران ، وما يجوز لمن يعيش فى مثل هذا النعيم أن يفكر لحظة واحدة فى عصيان المنعم الوهاب

— الله منعمٌ وهاب ، وهو يبخل بشجرة لا يساوى حطبها درهمين (١) ؟

— الآن عرفتُ أنك امرأةٌ سليمة الأعصاب والحواسّ إلى أبعد الحدود

— وكيف ؟

— لأنك تنكرين الجميل ، والمرأة لا تنكر الجميل إلا حين تكون فى عنفوان الصحة والعافية

— وإذن ؟

(١) هل كان فى جنة آدم وحواء دراهم ودنانير ؟ إن هذا يؤيد الطعن فى صحة كتاب « شيث »

— وإذن أعصى الله من أجلك يا حواء !

— فتأكل من شجرة التين ؟

— وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود

— تحبني ، يا آدم ؟

— أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلتْ فؤادي . أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان . أحب الغادة اللعوب بالعقل والروح . أحبك يا حواء حبًّا أمتنَ من الصدق وأروح من اليقين . أحبك يا حواء حبًّا سيُفسِدُ ما بيني وبين ربي ، إلا أن تشاء إرادته السامية أن أتقرب إليه بعبادة الجمال ... ولعله يشاء !

— وإذا لم يشأ ، فماذا تصنع ؟

— آكل من شجرة الخلد ، لأحمى هذا الجبين من الأفول

— بالعصيان ؟

— هنا المشكلة يا حواء ، فما يُسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال

— أراك اهتديت !

— وأراني ضللت !

— أفِقْ ، يا نَشْوان

— إن جاز للموقوذ بسكْر الجمال أن يُفيق !

— تحبني يا آدم ؟ تحبني ؟

— أحب النار التي صهرت روحي ، ولن أطمئن إلا يوم أنهشك يا حواء لتعودى نقطة من دمى

— ما هذه الوحشية ؟

— أيّ وحشية ؟ ألم تُؤخَذى من ضلعى ؟

— أنا من ضلعك أُخذتُ يا كذّاب؟

— إسألى الملائكة ، فعندهم الخبر اليقين

— ولهذا جئت جميلة ؟

— وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء !

— أراك تبغضني يا آدم !

— هو ذلك : فأنا أبغض العيون الجوارح ، وأبغض الجبين الوضاح ، وأمقت القد الرشيق ، وأستعيذ بالله من السحر المتموج فوق الثنايا البيض

— ثم ماذا ؟

— ثم أكره الصوت الذى يُشبه وسواس الْحلِيّ فوق النحور ، والذى يفوق غمغمة الكأس عند فورة الرحيق

— ثم ؟

— ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب

— ثم ؟

— ثم أبغض حواء لأنها حواء !

وبعد الأنس بقُبلتين محرقتين مضى آدم لشهود حفلة الطيران ، وهى حفلة موسمية كانت تقيمها الحمائم والبلابل والعنادل فى « غابة الصنوبر » لتروض أفراخها على النهوض والتحليق . ويحدثنا شيث أن حفلات الطيران هذه كانت تجتذب جميع سكان الجنة بلا استثناء . وقد نص على أن السباع كانت تراها عجباً من العجب ، لأنها تشهد بتنوع المواهب ، وإلا فكيف جاز أن يقدر الطائر الضعيف على ما يعجز عنه الأسد الصوّال ؟

مضى آدم وحده لشهود حفلة الطيران ، وهو مبتسم جذلان ، فقد أعفى نفسه من الحيرة في قرب شجرة التين ، وأسلم مصيره إلى خالق الأنوار والظلمات ، فللأقدار أن تصنع به ما تشاء

أما حواء فشعرت بحزن وانقباض حين رأت آدم لا يمانع فى قرب الشجرة المحرّمة ، ولهذا قلّت بشاشتها لشهود حفلة الطيران ، وكذلك آثرت الاعتكاف لتنظر فيما هى مقبلةٌ عليه ... فما الذى تأذّت به حواء وقد بلغت من ختل آدم فوق ما كانت تريد ؟

نظرت حواء فرأت أن الشقاق حول الشجرة المحرمة كان فرصة لشغل آدم بزوجته شغلاً غير مقطوع ، والمرأة يرضيها ويسرها ويشوقها أن يعيش الزوج وهو بها مشغول ، فكيف تكون الحال بعد أكل الثمرة الممنوعة حين يصبح جميع ما فى الجنة حلالاً فى حلال ؟

ونظرت فرأت أن الجدال حول الشجرة المحرمة ألانَ لسان آدم وعلّمه الحوار بأساليب لا تخلو من البراعة والظرف ، وقد تصل إلى السِّحر فى بعض الأحيان ، فكيف المصير إذا تساوت قِيمُ الأشياء واستغنى آدم عن الجدال ؟

سيكون الصمت من نصيب آدم حين تنعدم أسباب الخلاف ،

فكيف تعيش حواء مع رجلٍ صَمُوت ؟ وهل قلّ صمت آدم برغم ذلك الخلاف ؟ لقد كانت له تأملات طويلة ينسى بها ما حواليه حتى لتحسب زوجته أنه لا يشعر بأن لها من الوجود أى نصيب ، فأى بلاء ينتظر حواء يوم تنقطع موجبات اللجاجة مع فارسها الجميـل ؟

فى تلك الحومة كادت حواء تنتقل من المعصية إلى الكفران ، والعياذ بالله ، فقد جاز لها أن تعترض على نظام الجنة ، وأن ترى أنه لا يخلو من اختلال . والثورة النفسية تحيل النعيم إلى جحيم ، وذلك ما وقعت فيه حواء

نظرت فرأت أن الجنة قليلة المحرمات ، فهى قليلة الطيبات ، وهل يستطيب الناس غير الممنوعات ؟

نظرتْ فى هذا المعنى مليًّا ثم صرختْ :

أرى طِيبَ الحلال علىّ خُبثاً   وطِيبَ العيش فى خُبث الحرامِ

وهمّت باقتلاع شجرة التين لتحوّل الجنة إلى خراب يباب ، فما كانت الجنة فى نظرها غير تلك الشجرة الممنوعة ، وإذا اقتلعت تلك الشجرة فسوف يرى الله أن عنايته بخلق الجنة ذهبت أدراج الرياح !

ولكن شجرة التين التى لا يساوى حطبها درهمين أعجزت حواء فلم تستطع اقتلاعها برغم ما بذلت من الجهد « المحمود » فنكصت على عقبيها وقد نال منها الإعياء ما نال

وكان المفهوم أن تخجل من الهزيمة أمام شجرة التين ، وأن تزيد حقدها على الله ، ولكنها فرحت حين عرفت بالتجربة أن « شجرة الشرّ » قوية الجذور ، وأن الأمل فى اقتلاعها ضعيف ، وتمنّت أن تصبح الجنة وفيها لهذه الشجرة أمثال وأمثال

ذلك ما كان من أمر حواء ، فما أمرُ آدم وقد ذهب وحده لشهود حفلة الطيران ؟

رأى جميع المتفرجين يتحدث بعضهم مع بعض ، وهاله أن يرى الثعلب يناجى أنثاه بجذل وانشراح ، كأنه يدرك الدقائق من طيران أفراخ العندليب ، ورأى الأفعى تخاطب الأفعوان بعبارات فهِمَ منها أن حفر الجحر فى أصل الشجرة لا يقل خطراً عن بناء العش فى أعالى الأغصان

أراد آدم أن يتكلم ، ولكن مع مَن ؟

لو كانت حواء حاضرة لحدثها عن ذكائه فى استكشاف ما بين الخشب والماء ، فقد اهتدى إلى أن من يمتطى الخشبة لا تهوله أمواج الكوثر فى كثير ولا قليل ، وهل يكون امتطاء الهواء أوثق من امتطاء الماء ؟(1)

لو كانت حواء حاضرة لقال لها وقال ، ولكن أين حواء ؟

هنا أدرك آدم أن الحياة بلا رفيق لفظٌ بلا مدلول

ألم يكن يجرّد من نفسه شخصاً يحاوره حين يعتكف ؟

ألم تكن أشعاره تبدأ بعبارة « يا خليلىّ » أو « يا صاحبىّ »

كأنه يرى بضوء البصيرة أنه يحتاج إلى عدد من الأصحاب والخلان ؟

ألم يلاحظ أن الله حين اختصه بالنطق قد أوحى إليه أن حياته لن تكون بلا رفيق أو رفاق ؟ !

أين حواء ليبادلها الأحاديث ؟ وأين ماضيه فى الطيران بأجواء الحقائق والأباطيل ؟

إلى حواء ، إلى حواء ، إلى حواء !!

فماذا يرى آدم ، وماذا يسمع ؟

يرى فتاةً خامدة بجوار شجرة التين ، ويسمع أنيناً يذيب لفائف القلوب

— حواء !

— . . .

— حواء !

— . . .

— حواء !

— آدم ؟

— نعم ، آدم ، ماذا بك يا حواء ؟

— لا شىء ، ولكن أين كنت ؟

— كنت أشهد حفلة الطيران

— ورأيت عدل الله ؟

— فماذا ؟

— فى تزويد الطير بنعمة لن نظفر بها أبداً ، فهو يطير عن هذه الجنة حين يشاء !

— وهل مللت الثواء بالجنة يا حواء ؟

— أى جنة تريد ؟ أتريد هذا العيش الرتيب ، العيش الذى

(1) من هذا نعرف أن آدم سبق نوحاً إلى اختراع السفينة ، وإن لم يسبقه إلى ربطها بالدسر والألواح

لا يحرّم فيه غير طعامٍ واحد؟ العيش المملول، العيش الذى يقدّم فيه التفاح بلا حساب؟

— وما عيب هذا العيش يا حواء؟

— عيبه أنه حلال فى حلال

— وماذا تريدين؟

— أريد أن يكون لى جوح يُغضب الله

— وماذا تستفيدين من غضب الله؟

— أريد أن أشغله بنفسى

— لك الويل، يا شقية!

— لك أنت الويل، يا بليد!

— حواء، أنت حمقاء!

— الأحمق هو الذى يشهد حفلة الطيران ولا يستفيد

— وماذا يستفيد المرء من شهود حفلة الطيران؟

— ألم تَرَ مئات الأفراخ من الحمائم والبلابل والعنادل والصقور والعقبان وهى مجرَّحة بسبب العنف فى التمرن على الطيران

— نعم، رأيت، ثم رأيت!

— تقول إنك رأيت، فهل فهمت أن تلك الجراح هى سرّ القدرة على التحليق؟

— وإذن؟

— وإذن نجرَّح مرة أو مرتين أو مرات ...

— لماذا؟

— لنطير فى أجواء الرشد والغيّ والهدى والضلال

— إن كنت تريدين شجرة التين فلن أقرب شجرة التين

— حدثنى أحد الملائكة ...

— وتحدثك الملائكة يا حواء؟

— وتحدثك أيضاً ولكنك لا تسمع!

— وماذا قالت الملائكة؟

— قالت إن الله أخبرهم أنه سيجعل فى الأرض خليفة، وأنهم كرهوا أن يجعل فى الأرض من يُفسد فيها ويسفك الدماء

— وبماذا أجاب الله؟

— قال: إنى أعلم ما لا تعلمون

— ومعنى ذلك؟

— معناه أننا سنصير إلى الأرض

— بعد هذا النعيم؟

— وهل نحن فى نعيم؟

— اتق الله يا حواء

— اتق الله أنت

* * *

— الأرض، الأرض، الأرض!!!

— الأرض، الأرض، الأرض!!!

كذلك دار ذهن آدم وحواء بهذه الكلمات، واشتهى آدم واشتهت حواء رؤية ذلك العالم المجهول

— إلى شجرة التين، يا آدم

— إلى شجرة التين، يا حواء

— ولكن احذر من أن تقول إنى أغريتك!

— لم يغرنى غير العينين النجلاوين، والخدين الأسيلين، والثغر المعطَّر بأنفاس الرحيق

— إعترف صراحة بأنى ما أغويتك ولا أضللتك ولا زينت لك العصيان

— أعترف بأن حواء لا تُسأل عما يجنى قدها الرشيق

— ولا خصرها الأهيف؟

— ولا جيدها الأغيد!

— ولا ثغرها الرَّشوف؟

— ولا طرفها الكحيل!

— ولا تثنيها وهى تتخطر فوق شط الكوثر؟

— ولا سحر اللون الذى يتموج بساقَيْها حين تتمدد فوق الأعشاب!

— ولا بلؤمها حين تثور؟

— ولا بكرمها حين تطيع!

— آدم، آدم، أنت مخلوقٌ نبيل

— معاذ الله أن أكون كذلك، فما يوصف الرجل بالنبل إلا حين يملك ما يأتى وما يَدَع. وقد قلّت حيلتى فى رياضتك يا حواء، فأنا بفضل هواك من الهالكين

— لن تهلك وأنا معك

— ولن أهلك إلا لأنك معى، فالرفيق الفاسد يجرّ صاحبه إلى الهلاك

— اللهُ قدَّر أن يكون مصيرنا إلى الأرض ، فما خوفُك وتلك إرادته السامية ؟

— للجنة أسوار وحدود ، وأنا أخشى أن تكون الأرض بلا أسوار ولا حدود

— عند ذلك تستطيع أن تفر منى حين تشاء

— أنا فى الجنة مقهور على صحبتك بفضل الأسوار ، وسأكون فى الأرض مقهوراً على صحبتك بفضل الأهواء ، والفرق بين الحالتين بعيد

— لك أن تتحرر من هواى

— لو أصبحتِ تراباً يا شقية لكان من واجبى أن أستاف ذلك التراب

— تحبنى يا آدم ؟

— أحب اللسان الذى يتلجلج بفم الحية النضناض

— أنت وقح !

— الوقاحة لن تكون إلا من نصيب الجمال النشوان !

— النشوة العارمة لم تعرف إعجاباً غير إعجابك

— ولهذا أخضع للشهوة وأضيع

— إذن تأكل من شجرة التين

— وأستبيح المعصية فى سبيل الجمال

— خذ هذه التينة يا آدم

— إبدأى بنفسك

— هذه واحدة وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ، فهل وقع شيء ؟

— لم يقع شىء !

— وإذن يكون التين من ثمر المباح

عند ذلك مدّ آدم يده فالتهم ثمرة التين وهو يرجو أن يكون مصيره مصير حواء ، ولكن الجنة زُلزلت من جميع الجوانب فأدرك أن الله لا يقيم وزناً لغير هفوات الرجال .

« للحديث شجون وشجون » **زكى مبارك**

الأدب والعـــلم

للأستاذ محمد محمد المدني

كتب إليّ صديق من زملائي على عهد الدراسة كتاباً يقول فيه : —

« إني مواظب على قراءة الرسالة بشغف واهتمام ، ولست تكتب على صفحاتها مقالاً إلا قرأته لك ، وتنسمت فيه روحك ، وثارت به في نفسي ذكريات محببة عن أيامنا الجميلة التي كنا نختلف فيها إلى دروس الأدب والبلاغة يلقيها المرصفيُّ وعيَّارةُ والبطراوي والأسكندري وغيرهم ، ونتجاذب فيها أطراف المحاورة ، وأهداب المذاكرة ، ونتساقى كئوس الشعر والنثر كأنها رحيق مختوم . وقد أذكر زميلنا الذي كان مولعاً — في كتاباته الإنشائية — برواية أشعار المتنسكين والمتزهدين ، وأننا كنا نغرب في الضحك إذا سمعنا أستاذ الإنشاء يقرأ طرفاً مما كتب ، ويحاسبه على أفكاره العتيقة . وما لهذا كتبت إليك ، ولكني أريد أن أتحدث إليك في أمر كثيراً ما هممت بأن أحدثك فيه :

أنت تعرف رأيي في أسلوبك الكتابي وبحوثك العلمية ، وتعرف حبي لك وشديد غيرتي عليك ، فهل لي أن أسألك : لماذا تنحو في اختيار موضوعاتك هذه النواحي الأزهرية فتتحدث عن الفقه وأصول التشريع ودراسات الأزهر وأسلوبه في التفكير وما ينبغي له من علو ورفعة شأن ، ولا نراك تتحدث عن الأدب والشعر وهما في هذا العصر أنشودة الشُّداة ، وأغرودة الحداة ، وثقافة المثقفين ؟ لو كنت أعلم أنك تخرجت في علوم الشريعة لقلت : رجل مشغوف بما درس ، معنيٌّ بإشباع نهمه العلمي منه ، ولكنك تخرجت في دراستك تخرج الأديب ، ونلت شهادة التخصص في علوم البلاغة والأدب ، فكيف تجحد حقهما عليك وتنسى فضلهما في تهذيبك وتثقيفك ؟ وهل تتجنب إلى الأدب طالباً ، وتتنكر له أستاذاً ، فتقطع به صلتك ، وتزوى عنه وجهك وتنصرف إلى غيره مما ليس منه ولا يمتُّ إليه ؟

ما هــذا الذي أغرمت به ، وملك عليك نفسك ، واستبد بقلمك ؟ وأيُّ فرق بينك وبين الزميل المتنسك الذي أحدثُ إليه صدر هذا الكتاب ؟ ولِمَ إذن كنت تسخر منه ، وتُغرب في الضحك عليه ؟

لا يا صديق ، ما لهذا يريدك أصدقاؤك ، وما لهذا أردت نفسك ، وما لهذا أعدتك « شعبة البلاغة والأدب » في تخصص الأزهر . لا تكفر بالأدب ولا تنأ بجانبك عنه ، واستغفر لذنبك ودع الفقه والجـدال فيه ، ودع الأزهر والحـديث عنه ، والتحرق له والبكاء عليه ، فما ذلك بمغن عنك فتيلاً . وسوف يبقى الفقه كما هو ، وسوف يبقى الأزهر كما هو ، وسوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك في شأنهما هباء كما ضاعت من قبلُ صيحات وصيحات ! عد إلى أحضان الأدب يا صديقي وأسمعنا شدوك عند رياضه وغياضه ، وطر إلى آفاقه ، وحلّق بخيالك في سمائه ، فربما غنيت على قيثارته ألحاناً يرويها عنك الزمان ... »

* * *

هذا كتاب صديق إليّ ، أثبته كما هو لأنه وإن كان كتاباً خاصاً يتحدث عن شأن له ناحية من العموم ، ويمثل رأياً ينزع إليه جهرة من شباب المتأدبين في هذا العصر فهم به مولعون

ولست أرى أني أغاضب الأدب وأجافيه — كما يتصور هذا الصديق — حين أكتب في موضوعات علمية ، أو حين أعالج مشكلة من المشكلات الخاصة أو العامة ، فإن الأدب ليس محصوراً في دائرة العاطفة والخيال وما يتصل بهما ، ولكنه أوسع من ذلك دائرة وأبعد أثراً . وقد أتى على الناس حين من الدهر وهم يظنون الأدب حلية تراد للزينة وتستكمل بها مظاهر الترف ، فكانت قصور الملوك والأمراء وذوى اليسار كما تضم الندمان والسقاة والجوارى والغلمان ، تضم الشعراء والكتاب والقصاص والرواة ، فصارهم أن يكونوا أداة لهو وتسلية تشرح بهم الصدور وتُنسى الهموم . فلما ترفع الأدباء والشعراء عن تلك النزلة قصدوا إلى الأدب والشعر بالتكريم فصانوهما عن التبذل في خدمة الأمراء والثراة إلا قليلاً ، فأصبح الشاعر يقول ليرضى ذوقه الأدبى ، وأصبح الكاتب يكتب ليصف شعوره هو قبل أن يصف شعور الآخرين ؛ وبذلك استقل الأدب، ونال الأدباء والشعراء حريتهم، وانطلقوا يهيمون في جوهم الصافي ، وينعمون بأحلامهم اللذيذة ؛ لا يحبون أن يكدرها عليهم مكدر ، ولا أن يفسدها عليهم مفسد ؛

ولكنهم كانوا من ذلك فى شبه غيبوبة عن الحياة العملية المثمرة ، لا ينفذون إلى صميمها ، ولا يُعنَوْن إلا بحواشيها وأطرافها ، ورضوا بالفقر حليفاً ، وبالبؤس صاحباً ؛ وخيلوا للناس أن الأدب والفقر صنوان ، ورضيعا لبان ! وأن الأدباء والشعراء هم وراث « أبى الشمقمق » فى كل زمان !

أما فى هذا العصر ، فقد تغيرت المُثُل ، واستبدل الأدباء بنهجهم فى الحياة نهجاً سواه : أصبح الأديب هو الذى ينفذ بقلمه وذوقه إلى دقائق العلوم ، ومعضلات الفِكَر والآراء . هو الذى يجلو الغوامض ، ويفتح المغاليق ، وييسر المعاسير . ذلك اليومَ هو صميم الأدب ، وقصارى الأديب ، وذلك هو الوضع الصحيح الذى ينبغى أن تقوم عليه العلاقة بين الأدب والعلم !

من ظن أن الأدب فى هذا الزمان إنما هو أنشودة تنشد ، أو أغرودة تغرد ، أو خيال يسبح فى جوه الهائمون ، أو وصف زهرة مشرقة ، أو طائر صداح ، أو عاشق ولهان ، أو قلب خفاق ، أو عين باكية ، أو ثغر بسام ، أو جمال فتان ، أو قد ممشوق ، فقد ظن عجزاً !

إن ذلك من الأدب حقاً ، ولا يستطيع أن ينكر ذلك منكر ، ولكنه اليوم ليس المثل الأعلى للأدباء ، وإنما هو لون من ألوان غذائهم الروحى يتشهَّوْنه الفينة بعد الفينة ، وهو بعد ذلك أقرب ثمرات الأدب إلى يد الأديب وأيسرها منالاً . أما العلوم والمعارف ؛ أما مشكلات الحياة وقضايا العقول ؛ أما سهر الليالى ومجافاة الجنوب للمضاجع فى سبيل التحصيل والتزود من زاد البصائر ، فتلك هى الحَلْبة لمن أراد السباق ! !

***

أعيذك بالله - يا صديقى - أن تستخف بأمر الفقه والأصول وأسرار التشريع ، أو يثقل عليك القول فى إصلاح الأزهر وتقويم ميله ، أو يداخلك اليأس حين ترى الداء مستشرياً والطبيب حائراً

إن الشرق الإسلامى قد استفاق من سباته العميق ، وإنه يريد أن ينهض وأن يستعيد مجده السالف يوم كان مصدر النور والمعرفة ، بل يوم كان مصدر الهداية ومنبت الخير ، ولو تأملنا بوادر هذه النهضة وتأملنا إلى جوانبها بوادر الانهيار ، بل عوامل الدمار التى تعمل عملها السريع فى إهلاك أعداء الشرق وخصوم الإسلام لكان لنا أن نؤمل دورة الفلك ، وأن نأخذ فى تكميل أنفسنا ، وتصحيح أخطائنا ، والرجوع إلى قوميتنا استعداداً لما ينتظرنا . وهذه الشريعة الإسلامية هى الشريعة التى نلنا بفضلها أسباب السماء فى الماضى ، ولم يجد أعداؤنا منفذاً إلينا ونحن متمسكون بها ؛ وفقه هذه الشريعة هو فقه الحياة والعمل ، هو فقه العدل والرحمة ، هو فقه الحضارة والمدنية فى أبهى صور الحضارة والمدنيـة ؛ فاذا تكلم فى شأنه المتكلمون ، ودعا له الكتاب ، وعرض الأدباء العاملون بمض صوره على الناس ، وخلصوه مما أضيف إليـه واختلط به ، كل بمقدار ما يستطيع ، فإنهم لا يقومون فى ذلك بواجب دينى فحسب ، وإنما يقومون مع ذلك بواجب قومى وطنى لا مناص لأهل العلم والأدب جميعاً من التعاون على حمل أعبائه . ومثل ذلك يقال عن الأزهر : ينبغى أن يلتفت إليـه أدباؤنا ، وأن يكتب فى شأنه كتابنا ، لأنه (جامعة الشرق) ، ووارث ثقافته ، وعنوان مجده ، ومعقد آماله !

إنك - يا صديقى - تقول لى فى كتابك : « سوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك فى شأنهما هباء كما ضاعت من قبل صيحات وصيحات » . وأحب أن أقول لك إنه لم يضع شئ أبداً ، وإن الذين صاحوا من قبل قد أثروا بصيحاتهم آثاراً بعيدة المدى فى العلم والتفكير والإصلاح . ويمكنك أن ترجع إلى عهد الأستاذ الإمام محمد عبده ، لتوازن بين عقلية الأزهر الماضية وعقليته الحاضرة فى العقائد والفقه وأحكام المعاملات والأحوال الشخصية ، فتلمس الفرق بينهما ، وتدرك أن صيحات هذا المصلح الدينى لم تذهب هباء

ولقد كان الأستاذ الإمام محمد عبده أديباً رائع البيان ، وكان له ذوق ممتاز فى فهم الشعر والنثر ظهر أثره فى تفسيره لما فسر من القرآن ، فهل منعه ذلك أن يؤلف فى علم الكلام ، وأن يفتى فى الفقه ، وأن يشرع شَبَاة قلمه لتأييد دعوته الإصلاحية الكبرى ؟

بل لقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه أديباً عاش فى البادية ونزل فى هذيل ، يقيم معها ما أقامت ، ويرحل معها إذا رحلت ، ويتعلم كلامها ، ويحذق لغتها ، ويروى أشعارها ، حتى بلغ من ذلك شأواً بعيداً ، ولكنه لم يجعل هذا غرضاً ، وإنما اتخذه وسيلة

إلى علم أكبر ، وفضل أظهر ، ووقرت فى نفسه كلمة الزبيدى الذى لقيه فى طريقه ، فتحدث إليه فوجده فصيح اللسان ، عبقرى الذكاء ، فقال له : أيها الفتى ! يعز علىّ ألا يكون مع هذه الفصاحة وهذا الذكاء فقه تسود به أهل زمانك ! وقد أراد الله ذلك ، فإذا الشافعى رجل من الرجال العالميين ، وإذا اسمه مسجل فى سجل الخالدين !

أما بعد ، فياصديقى العزيز : لا تَلْحَنى ولكن أَعِنّى

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية العربية

خواطر وصـــور

نثرها مرحلة من الطريق بين القاهرة وبغداد

[إلى الأستاذ المازنى نـوق السؤال]

للأستاذ فخرى شهاب السعيدى

كانت مفازة رهيبة !

ولم يكن فيها من آثار الإنسان غير اثنين : هذه الأسلاك النحاسيّة المعلّقة فى الهواء على ركائز من الحديد الصابر المتين : تبيّن ما طُوِى من الشّقة ، وما ظل ينتظر الطىّ ؛ وهذا الطريق الأسود الطويل ... الذى لا تكاد تدرك العين والسيارة آخر ما يمس الأفق من تعاريجه ومرتفعاته ، حتى تتكشّف أمام العين مناظر منه أخرى ، وحتى تتبدى للسيارة منه تعاريج وأطوال ...

وكانت السيارة صابرة على هذا الأسود الممتدّ أمامها ، الهازئ بها ، الذى يمتحن صبرها بأعاجيب من عنده : فتارة يلتوى لها ، وأخرى ينحدر ؛ وطوراً ينحنى أمامها ، وحيناً يستدير ... وهى لا تعبأ بهذا الهازئ المتحن ، بل تمضى قدماً ، وصوت شهيقها وزفيرها ، وقلبها الخافق ، ودماؤها الغالية ملء أسماع الركب الذين أسلموها القياد فى صبر واضطرار ! وكانت السآمة قد تغشّتهم جميعاً ممـا يتدفق أمام عيونهم من مناظر الصحراء ، وما كانت هذه لتعدو الرمال والجلاميد ، والهضاب العالية والوديان الخالية ، وكل ما يمثل الموت والسكون والجمود من آثار الطبيعة .

وما أشد صدوف الناس عما يذكرهم بمثل ذلك من آثار !

... كان بعضهم يزجى فراغه بالحديث يرفعه عالياً ليغالب زئير السيارة الذى ملأ الفضاء والأسمـاع ، ثم لا يلبث — هذا البعض — أن تتعبه المغالبة فيستنجد بالسكوت . وكان بعضهم يأكل ! نعم كان يقتل السآمة بالأكل . وبعضهم كان يقرأ .

وكنت أنا من بينهم وحدى الذى طاب له أن يقصر عمله على اثنين : مطالعة هذه الصفحة الصحراوية ، الجليل خطّها ، المذهب متنها بفعل الرمال ، والمفضّضـة حواشيها بإطار الأفق الجميل ؛ والتحدث إلى نفسى والأخذ منها والرد عليها فيما كان يحضرنى من أفـكار ... وبين هذين المملين ، أو هذين الشاغلين ـ بكلمة أخرى ـ كان الوقت يمضى مسرعاً ، والسيارة تنهب من الأرض كيلو متراتها نهباً ؛ وكنت وجدت فى ذلك لى متعة كان يحظرها علىّ المجتمع لو أننى أضعت هذا الوقت فيه !

وعندى أن الأخذ من النفس والرد عليها ، ومحاورتها بألوان الأفـكار ، ومناقشتها فى ضروب من الآراء ، مما يرتاح الإنسان إليه — أو أنا على الأقل ، فما أدرى ما حال الناس غيرى — ولقد تمرّ علىّ فى حال معينة وظرف بعينه لحظات أود لو أنى استطعت أن أكون من هذا المجتمع فى نجوة لآتى تلك الصديقة المحببة ... التى هى نفسى ، فأجلس إليها وأداعبها وأعابثها وأحاورها ، وأسمعها وتسمعنى فى صنوف شتى من أبواب الجد الهازل أو الهزل الجاد !

أما الصحراء هذه الصحيفة التى تنبسط أمامى جديدة من سفر الوجود ، فما كان أجلها ، وما كان أروع الجلال الذى كان يشع منها على النفس فيصغر من شأنها ، ويقلل من تيهها ، ويذلل من كبريائها ، ويصهر جوهرها صهراً يصفيه ويطهر الأعراق

كم من البشر — قبلنا — مروا بك أيتها الصحراء ؟ وكم ركباً قبل هـذا اقتحم مفاوزك هذه ، ثقةً منه بنفسه ، واعتماداً منه على قدرته ، واتكالاً على ما أوتى من علم ؟ وكم منهم نجا ، وكم كان فى الهالكين ؟ لم أنجيت من أسرك فريقاً ؟ ولِمَ اقتنصت فريقاً ، فأطبقت عليهم فى غير شفقة ولا رحمة ، ولا ذكر لذويهم الذين استودعوك قلوبهم وائتمنوك عليها ثقة منهم بعدلك فإذا أنت تضيعين الثقة وتخلفين الرجاء ؟ !

كم ـ أيتها الصحراء ـ فيك من قوافل تسمع ولا تجيب ، وتحتمل وطأنا إياها ولا تئن ؟ لم لا تطلقين هؤلاء من أغلالهم ،

وترديهم إلى أهلهم فتكسبى حبهم وشكرهم وثقتهم ، وتعودون — أنت وهم — بعض لبعض أحباباً ؟ ! ألا تعجبك أيتها الصحراء صداقة الإنسان ؟ !

يا لله !

ما لها لا تحير جواباً ! لعلها كانت تنطق فلا أسمع وترفع بالإجابة صوتها فتتلقاه أذنى دوياً لا تستطيع آدميتى فهمه واستجلاء معانيه !

وعدتُ أنظر إلى هذه التلال ثانية فإذا هى قدنمَتْ وكبرت وتضَخَّمتْ حجارتها واشتدتْ صلابةً وأيْداً ؛ وقد علمتُ — حين سألتُ عن السر — أننا شارفنا أرض فلسطين ! ! فالقيمة إذاً تلبس لباس وقارها وحشمتها لتدخل الأرض المقدسة أرض المَعَادِ ! فما بالنا نحن ـ البشر ـ لا نلبس لهذه الأرض المقدسة لباسها كما تفعل الأرض ذاتها ، ولا نحييها باطراح شرورنا ونبذ ما ران على قلوبنا ، كما تصنع هذه الجلاميد ؟ ولقد هممت أن أقوم احتراماً ، بل لقد قمت فعلاً ، فما راعنى إلا أن أجلستنى السيارة المنطلقة فى عنف ، طالبة أن أكف عن الاسترسال في هذا الخيال وأنصرف معها إلى ما هى فيه من جد وكد عنيف !

ولم نلبث بين هذه الجلاميد إلا ساعة أو نحوها حتى تبدّت الأرض فى حلة من وشى جديد ، تختلط فيه خضرة العشب النض بسواد الصخور الصم ، فكأن الطبيعة قد أرادت بهذا الجمع بين النقيضين أن تجيء بالبرهان القاطع على أنها لا تعرف هذا الذى تواضع الناس عليه من فصل بين شتى مظاهرها فى هذا الكون الذى هو معرض الاتساق !

وكان جميلاً أن يُرى ما كان يحسبه الإنسان من هذه الصخور الجرد مثالاً للقسوة وتمثالاً للجمود ينشئ الحياة الغضة إنشاء ويخرجها أعشاباً طرية من بين الفرجات الصغيرة التى فيه ، ويجمع لها فى هذه الشقوق الماء الذى تحتاج إليه لترتاح له وتأنس بالمقام عنده وتطمئن ـ فى ضمان حياتها ـ إليه .

وكانت الجبال على أتم صلة ببعضها ، فلا يفصل بينها شىء إلا صبغته بصباغها الأحوَى ، وعلمته كيف ينساق لمشيئتها فى غير تردد ولا بطء : فالجداول الصغيرة ، والوديان الفسيحة ، وهذا القليل من رحاب الأرض المنبسطة ، ومخارم الجبال ذاتها أيضاً ، كل أولئك كان طائعاً لتلك الجبال يصل ما بينها ليظهرها أمام العين بمظهر واحد ينم على الألفة المتينة والوداد الجميل .

وكانت هذه المشاهد التي تطغى على القلب والعقل ، فتملأ ذاك غبطة وتزيد هذا إيماناً بالعجز أو سدوراً فى الضلال ، جديدة أمام عينى ؛ وكان كل واحد منها جديراً بأن أطيل النظر فيه لنتعارف ، ولكن السيارة كانت تأبى ، وحسبتْ أن ذلك قد يطول منا فنعتاقها عما هى وراءه من تقريب الشقة أمام هذا الركب الضجر الملول . وجدة المشاهد أمام العين تذكّر بعهد الطفولة حين يخرج الواحد منا من ظلماته الأزلية إلى هذا النور الدنيوى ـ أو الذى نسميه نوراً وما ندرى من أمره حقيقة ولا ندرك كنهاً ـ فكل ما تقع العين عليه جديد لذيذ ، يبعث الفضول ويرهف الحس ويصب على الفكر وابلاً من الأسئلة الخالدة التى تطوف فى فكر كل ذى فكر ؛ ثم لا يلبث المرء أن تعييه الإجابة فينزل عند حكم المشيئة التى أرادت له مثل هذه الحواس المحدود إدراكها ، ومثل هذه القوة العاقلة التى يسرع التعب إليها قبل بدئها فى البحث عما هى وراءه من استكشاف المجاهيل !

ونبهتنى هذه الخواطر إلى ما للجهل من فائدة وفضل على الناس ، وأذكرنى هذا بالنظرية التى تقول : إن كل شىء خيّر فى الطبيعة إذا وُضع فى موضعه وأُحِلّ فى المكان المناسب له . فالجهل مثلاً ـ وهو موضوعنا ـ يثير فضول القوى العاقلة لدى الناس ، ويعقِّد أمامهم مشاكل عويصة يعالجون حلها ، فكثيراً ما يضلون وقليلاً ما يهتدون . ولكنهم ـ وعلى أية حالة كانوا ـ تفيض السعادة والراحة على قلوبهم حين القصور ، وحين البلوغ على حد سواء ! !

وأذكر أنى كنت ذات مرة فى زيارة لخرائب بابل ، وكنت وقتئذاك صبياً يحسب العلم وقفاً على المسنّين . فسألت أحد الأدلاء ـ وكان شيخاً ـ وكان جاهلاً أميًّا ـ عما صيّر هؤلاء الآدميين الذين كانوا مثلنا من لحم ودم ـ حجارة ! فأجاب أو أجابت بديهته ـ فما كان عنده عقل يجيب ـ : غضب الله ! وقد ظللت أعتقد بصحة هذه الجملة التى انطلق بها لسان دليلى العامى حتى دخلت المدرسة فعُلِّمْتُ غير هذا ، ووعيت فى حافظتى كلاماً غير كلام الدليل ، علمياً منطقياً ، تقوم على تأييده والبرهنة على صحته حجج قواطع . فاستسخفتُ ذلك الساذج ، واستسخفتْ نفس ذلك الطفل الذى لم يحاكم القول الذي سمع ؛ ولكنى أشهد الله (تعالى) ، على أن نفسى اليوم لا تستطيب معنى أحلى ، ولا جملة أبلغ ، ولا فلسفة أعلى مما انطلقت به بديهة الرجل

من أدب القرن التاسع

كتاب « سحر العيون »

للأستاذ أحمد يوسف نجاتي

كنت منـذ حين قرأت حديثاً للأستاذ أحمد بك أمين يعرض فيه « كتاب سحر العيون » عرضاً شائقاً — والكتاب مطبوع قديماً بدون أن يذكر فى أوله اسم مؤلفه — ورأيت الأستاذ يقول فى هذا المقال القيّم : من الأسف أنى لم أعثر على اسم مؤلفه . ولكنه فى ثنايا الكتاب يقول : «أنشدنى صاحبنا الشيخ شمس الدين محمد ابن أبى بكر القادرى[1] المولود سنة ٨٢٤ . فمؤلف الكتاب إذاً — من أدباء القرن التاسع الهجرى — والظاهر أنه مصرى لأنه يروى لنا فى ثنايا الكتاب أحداثاً مصرية وأمثالاً عامية مصرية »

(١) شمس الدين محمد بن أبى بكر بن عمر بن عمران بن نجيب بن عامر أبو الفضل الأنصارى الأوسى السعدى المصرى القادرى الشاعر المشهور . جزم فى نظمه أنه ولد فى سـنة ٨٢٠ فى جهة دمياط ، كان أديباً شاعراً مجيداً . أنشد له البدرى فى ص ٢٨٥ ، ٣٠٢ من كتابه ، وتوفى فى أوائل القرن العاشر . وسنعرض لترجمته ونقد شعره وعرض كثير منه

الجهول ! ! هل ترى العالِم المنقِّبَ الفاضل حين يدخل خرائب البابليين يَعْمُرُ صدره بالإيمان ، وترتفع روحه إلى أجواء من السعادة العلوية ، وتتملكه الروعة والجلال كهذا الدليل الجاهل الأمى الجواب عندى « لا » ! !

لأنى من المؤمنين بأن للجهل نفعاً ، وأن شأنه فى هذا شأن كل ما أبدعته الكفُ الصنّاعُ الخالقة الجليلة فى هذا الكون الجميل ... وهنا بانت لنا عن بعد دائرة جوازات السفر على الحدود الفلسطينية فأبدلتنا بأفكارنا غيرها ، وتبددت هـذه الأخيلة وكان ما كان ...

* * *

فإلى الأستاذ المازنى الجليل نسوق سؤالاً عن نفع الجهل ؛ فقد كان حدثنا بحديث من ذلك قبل سنين . فإن رأى - أطال الله بقاءه، وجعلنا من كل سوء فداءه - ألا يبخل بهذه الآراء على قراء (الرسالة) فعل وله منا ومنهم ألف شكر !

فخرى شهاب السعيدى

فأسفت لأسف الأستاذ ، وأردت أن أكتب ترجمة طويلة لهذا المؤلف تكشف الحجاب عنه ، وأن أعرض ما أعرفه من مصنفاته عرضاً دقيقاً وأحلله تحليلاً أدبيًّا مسهباً . ولكن عَدَت دون ذلك عوادٍ صارفة لا قبَل لى بها ، وحالت دونه عوائق شاغلة لم يكن أمر نفسى معها بيدى . وطال الأمد على ذلك حتى أُنسيت ما كنت قد عزمت عليه ؛ وشغلتنى أعمالى الكثيرة بغيره ، إلى أن سألنى اليوم أحد الطلبة الأدباء عن مؤلف هذا الكتاب ؛ فذكرنى بما كنت قد نسيته ؛ ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة فأسعف طلبته بهذه الكلمة الموجزة التى أحررها على عجل . وفى العزم إن شاء الله أن أبسط القول فى ترجمة هذا الأديب وترجمة شيوخه وأصحابه ومعاصريه الذين تربطهم به صلة وثيقة كان لها أثر بيّن فى أدبه ؛ وأن أطيل الكلام فى الأدب المصرى والشامى فى عصر المماليك عامة وفى القرن التاسع خاصة . وأرجو أن تفسح لى مجلة « الرسالة » الغراء صدرها فعهدى بها مجلة الأدب الرفيع وحلبة ميدانه الذى تجول فيه أقلام فرسانه من الكرام الكاتبين

١ — لقد دل مؤلف « سحر العيون » على نفسه فى نحو عشرين صفحة من كتابه ، ونادى باسمه (البدرى) فيه كثيراً حتى بحّ صوته . وكأنى به فى ص ١٨٨ قال : « من عرفنى فقد اكتفى ، ومن لم يعرفنى فأنا جامعه البدرى عفى عنه ، مولده فى عشية الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول من شهور سـنة سبع وأربعين وثمانمائة » وسنعرض بعد لسائر الصفحات التى صرح فيها باسمه ، ونتناول شعره فيها وفى غيرها بالنقد والتحليل

٢ — للبدرى مؤلف « سحر العيون » كتاب آخر اسمه : (نزهة الأنام فى محاسن الشام) طبع بمصر بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤١ هـ صدر عنوانه فى أول صفحة منه بما يأتى :

« نزهة الأنام فى محاسن الشام ، تأليف أبى البقاء عبد الله ابن محمد البـدرى المصرى الدمشقى من علماء القرن التاسع (ولد سنة ٨٤٧) صاحب الديوان المشهور ، وتاريخ « تبصرة أولى الأبصار » و « سحر العيون » اهـ . وقد دل المؤلف أيضاً على نفسه فى هذا الكتاب فى كثير من صفحاته ، وموعدنا بالكلام فى هذا الكتاب وسواه قريب إن شاء الله

٣ — وفى فهرس الكتب العربية لدار الكتب الملكية بالجزء الخامس المشتمل على فهرس التاريخ فى ص ٣٨٧ ما نصه :

« نزهة الأنام فى محاسن الشام ، تأليف أبى البقاء عبد الله ابن محمد البدرى المصرى الدمشقى من علماء القرن التاسع ، ولد سنة ٨٤٧ (وكتب سنة ٧٤٧ غلطاً) ، وهو صاحب الديوان الشهور والتاريخ المسمى : « تبصرة أولى الأبصار فى انقراض العمر بين الليل والنهار » ، « سحر العيون » . الخ

وإنى أنصح لمن يعنى بالأدب وتاريخه أن يطلع على فهارس دار الكتب ، فإنه يعثر فيها على فوائد جمة ويهتدى إلى مراجع قيمة فى اللغة العربية وآدابها وتاريخها . وفى كشف الظنون (نزهة الأنام فى فضائل محاسن الشام) لأبى البقاء عبد الله ابن محمد البدرى المصرى الدمشقى الشافعى

٤ — وأبيّن مما تقدم ترجمة علم الدين السخاوى فى كتابه (الضوء اللامع) لمؤلف « سحر العيون » . ونحن ننقل هذه الترجمة بنصها ، ونشفعها بشرحها ونقدها . قال : « أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله تقى الدين بن الجمال الدمشقى القاهرى الشاعر الوفائى ، ويعرف بابن البدرى ، ويكنى أيضاً أبا البقاء ، ولد فى شهر ربيع الأول سنة ٨٤٧ بدمشق ونشأ بها ، وتكرر قدومه مع أبيه للقاهرة ثم قطنها مدة ، واشتغل بالبلدين قليلاً . وكتب عن خلق من الشيوخ فمن فوقهم . وتعانى الشعر ومدح وهجا وطارح . وتردّد إلىّ فأخذ عنى ومدحنى فيا كتبته فى موضع آخر ، وفيه :

جد لى سريعاً بالحديث إجازة يا كاملاً دُم وافر الإعطاء

وانتمى لبنى الشحنة وتكسب بالشهادة وبالنسخ . فلما ولى الأمشاطى عمل فيه أبياتاً فلم يقابله عليها ، إلى أن تعرض لعبد الرزاق الملقب مجين أمه نزيل القاضى فى البرقوقية ونسبه لأمر فظيع الله أعلم بصحته ، فبادر لتطلبه فلم يقدر عليه ، فصرح بمنعه من تحمل الشهادة فلم يلبث إلا يسيراً . وماتت له زوجة فورث منها قدراً طائلاً بعد فقره فلمّ أطرافه وسافر لمكة فجاور ثم قطن الشام ، ثم جاور بالمدينة سنة ٨٩٢ وكتب فيهما من تصانيف الشريف السمهودى وغيره ، ثم جاور التى تليها سنة ٨٩٣ بمكة ؛ وكان يجتمع علىّ بها ، وكتب من تصانيفى مجموعاً ، ولازمنى فى التحمّل رواية ودراية . وأوقفنى على مجموع سماه « غرر[1] الصباح فى وصف الوجوه الصِّباح » وقرظه له الشعراء فأبلغوا ، وكان من أعيانهم البرهان الباعونى وأخواه ، والشهاب الحجازى ، والمنصورى ، والقادرى ، وابن قرقاس . وقال إنه ألفه بدمشق سنة ٨٦٥ ، والتمس منى تقريظه فأجبته وكتبت له إجازة حسنة ، وامتدح قضاة مكة وغيرهم ، وليس نظمه بالطائل ، ولا فهمه بالكامل . وكتبت عنه من نظمه :

إذا ما كان مجموعى لديكم من الدنيا بهـذا قد قنعت
وما قصدى سوى هذا وحسبى بأنى فى يديك وما جمعت

وكان يتكسب بالتجارة ، وربما جلس بحانوت بمكة فى الموسم . تعلل بمكة مدة وسافر منها وهو كذلك فى أوائل المحرم سنة ٨٩٤ فى البحر فوصل إلى الطور ثم غزة فأدركه أجله هناك فى جمادى منها . وبلغنا ذلك فى شوال — عفا الله عنه — وترك ولدين أو أ كثر وتركة ، وأظن والده فى الأحياء . عفا الله عنه وإيانا » اه

انتهت ترجمة السخاوى . وهو معروف بأنه قد يتحامل على بعض معاصريه ، ويقذفهم بعبارات تهكم لاذعة وقوارص من الكلم تنطوى على سخرية مريرة ، بداعى المنافسة والمعاصرة والازدحام على منهل عذب واحد . وقد قال فيه معاصره (ابن إياس) فى كتابه « بدائع الزهور » : « إنه ألف تاريخاً فيه كثير من المساوئ فى حق الناس » . وأنشأ معاصره (جلال الدين السيوطى) مقامة من ضمن مقاماته سماها « الكاوي فى رد تاريخ السخاوى) شنع عليه فيها ... يقول فيها : « ما ترون فى رجل ألف تاريخاً جمع فيه أ كابر وأعياناً ، ونسب لأ كل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوئ وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاما على قدر أغراضه والأعراض هى الأغراض . وجعل لحم المسلمين جلة طعامه وإدامه ، واستغرق فى أ كلها أوقات فطره وصيامه ... » والمقامة مخطوطة محفوظة بدار الكتب الملكية تحت رقم ١٥١٠ . فينبغى للمنصف أن يقف أمام بعض تراجم السخاوى موقفاً محايداً صريحاً

ونحن بعد هذا نشرح ما يحتاج إلى الشرح والتبيان من ترجمة علم الدين السخاوى لأبى بكر البدرى ، ونشفع ذلك بنقده ونصل القول إلى ما وعدنا به من ترجمة حياة هذا الأديب ترجمة ضافية وترجمة أدباء عصره وأقرانه وشيوخه وأصحابه ، ونكشف النقاب عن الأدب المصرى فى القرن التاسع بل فى عصر المماليك عامة بإذن الله

(١) قال فى كشف الظنون « غزة الصباح فى وصف الوجوه الصباح » ، — والاسم محرف هنا — للشيخ تقى الدين أبى بكر البدرى الدمشقى ثم المصرى . أوله : (أما بعد حمد الله الذى الخ رتبه على سبعة عشر باباً) اه

١ — أما بنو الشحنة الذين انتمى إليهم البدرى فهم من أسرة شامية من مدينة حلب كريمة الأصل والحسب ، عريقة فى العلم والأدب . وقد تقلدوا كثيراً من الوظائف العلمية والدينية بالشام ومصر من قضاء وإفتاء وخطابة وتدريس . وكان لبعضهم أثر فى الحركات السياسية فى ذلك العصر ؛ وجدهم الأعلى «محمود» من أصل تركى وهو الملقب بالشحنة لأنه كان شحنة مدينة حلب (وشحنة البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان) ، فهى وظيفة كأنها وظيفة (الحكمدار) الآن .

ومن أقدم من عرفت من بنى الشحنة :

١ — كمال الدين محمد بن محمد بن محمود (الشحنة) بن غازى ابن أيوب ، كان من فضلاء زمانه متقناً لعلوم الدين واللسان ، واشتغل بالتدريس والقضاء ونشر العلم وإفادته . وتوفى بمدينة حلب فى شهر ربيع الأول سنة ٧٧٦ .

٢ — وابنه أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمود ولد سنة ٧٤٩ بحلب ونشأ بها فى كنف أبيه وارتحل إلى دمشق والقاهرة للأخذ عن علمائها . وارتحل مرة أخرى إلى مصر سنة ٧٧٧ بعد وفاة والده فظهرت بها فضائله فولاه سلطانها قضاء بلده حلب سنة ٧٧٨ فلبث بها حيناً يتقلب بين الولاية والعزل حتى فصله السلطان برقوق سنة ٧٩٣ فعاد إلى القاهرة وأقام بها نحو ثلاث سنين ، ثم توجه إلى بلده وشغل نفسه بالتأليف وإفادة العلم ، ثم ولى قضاءها سنة ٨٠٩ ، وبعد حوادث عاد إلى القاهرة معزولاً عن عمله فولى بها عدة وظائف فى التدريس ، ثم عاد إلى وطنه حلب فتوفى بها فى شهر ربيع الآخر سنة ٨١٥ وكان نابغة فى علوم اللغة والدين والأدب والتاريخ ، وله مؤلفات مفيدة ذكر منها فى كشف الظنون كتاب (أوضح الدلائل والأبحاث فيما تحل به المطلقة بالثلاث) و (روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر) انتهى فيه إلى سنة ٨٠٦ ؛ وبدار الكتب المصرية نسخة منه مخطوطة فى مجلد فرغ كاتبها منها آخر شوال سنة ١٢٩٧ هـ نقلها عن النسخة الخطية بخط أبى الحسن على بن حسن بن على ابن احمد السروى الأزهرى ، انتهى من كتابتها فى شهر شعبان سنة ٨٧٣ وهى منقولة عن نسخة بخط القاضى محب الدين أبى الفضل محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة ولد المؤلف ، أتمها كتابة فى شهر رمضان من سنة ٨٢٥

وكان عاقلاً ذكياً دمث الأخلاق ، حلو النادرة ، لطيف المحاضرة ، قوى البديهة . قال المقريزى : ولقد قام مقاماً عجز أقرانه عنه ، وتعجب أهل زمانه منه ، وذلك أن الطاغية تيمورلنك لما استولى على مدينة حلب ٨٠٣ وتسلم قلعتها بالأمان بعد أن استحر القتل والأسر فى أهلها ، صعد إليها وجلس فى إيوانها وطلب القضاة والعلماء للاقاته فامتثلوا أمره . وكان من عادته أنه إذا فتح مدينة يعقد مجلساً لمناظرة علمائه وإعناتهم ، وكأنه يريد أن يريهم أنه على حق فى عمله ، ويصبغ فظائعه المروعة صبغة شرعية . واتفق هؤلاء العلماء فيما بينهم أن يتولى القاضى ابن الشحنة الإجابة عن الأسئلة التى يوجهها تيمور إليهم ثقة بحذقه وحسن تصرفه . وكان للطاغية إمام من جلة المعتزلة هو القاضى عبد الجبار بن عبدالله الخوارزمى الحنفى ولد سنة ٧٧٠ وتوفى سنة ٨٠٥ وكان عالماً قديراً بارعاً متقناً لعلوم الدين واللغة والأدب، يجيد اللغات العربية والفارسية والتركية ، وكان ذا ثروة طائلة وجاه عظيم ومنزلة رفيعة لدى تيمورلنك حتى انتهت إليه الرياسة فى أصحابه . وكان يصحبه معه فى غزواته لمناقشة العلماء ومناظرتهم وليكون حلقة اتصال بالترجمة بينه وبينهم . وقد كان القاضى عبد الجبار رحمة للمسلمين ، طالما أنقذهم من غضب الطاغية وسخطه ، وأطفأ عنهم نار ثورته وحدته . وكان ربما تبرم من صحبة تيمور لنك فى نفسه ولكن لا يسعه مخالفته مع ما يرجو فى ذلك من ثواب نفعه للناس لدى هذا الطاغية وكف شره عنهم .

عقد تيمور المجلس وأخذ يوجه إلى العلماء الأسئلة بوساطة إمامه ، وابن الشحنة يجيب عنها بلباقة ، فكان من ضمن هذه الأسئلة أن قال لهم : أى الطائفتين من القتلى هو الشهيد ، أمن قتل منكم أم من قتل منا ؟ وقد كان هذا السؤال محرجاً لولا مهارة القاضى ابن الشحنة ؛ فقد أجاب قائلاً : لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك فأجاب : فإنه وفد إليه أعرابى وسأله : يا رسول الله ، إن الرجل ليقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل ليرى مكانه ، فأينا فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الشهيد فى سبيل الله ... فراق تيمورلنك هذا الجواب وأحسن إلى ابن الشحنة ، وأعجب بدهائه وحسن تخلصه ولطف احتياله وسرعة بديهته ، وجعل يؤانس العلماء ويلاطفهم ، ووعدهم العفو عنهم حتى أفرخ روعهم ؛ وأقبلوا يجيبون على أسئلة تيمور بما عندهم ، وكان آخر ما سألهم عنه أن قال : ما تقولون فى على ومعاوية ويزيد ؟ وما الحكم فى قتال

على ومعاوية ؟ وهل يجوز لعن معاوية وابنه ؟ فأجاب القاضي علم الدين القفصي : محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد الدمشقي [1] قائلاً : إن علياً اجتهد وأصاب فله أجران ، ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . فغاظ ذلك الجواب تيمورلنك وأهان العلماء وسبّ أهل حلب ، ورماهم بأنهم يزيدّيون يبغضون أهل البيت وشيعتهم ، فتدارك ابن الشحنة الأمر بلطفه وقال : إن القاضي علم الدين أجاب بما وجده فى كتاب لم يمعن فى معناه والغرض منه . فأعجب ذلك الطاغية ، وسكت عنه الغضب . وأجاب القاضي شرف الدين موسى ابن محمد بن محمد قاضي حلب المتوفى سنة ٨٠٣ بأن معاوية لا يجوز لعنه لأنه صحابى ؛ فثار الطاغية وسب العلماء ، ولولا أن القاضى شفع ذلك بقوله : إنه رأى حاشية على بعض الكتب بأنه يجوز لعن يزيد ، ولولا أن الطاغية كان قد وعد بالعفو ، ولولا حسن وساطة القاضى ابن الشحنة ، للاقى العلماء يومئذ من تيمور شراً مستطيراً

هذا ، ولابن الشحنة نثر ونظم ليس عالى الطبقة ، بل هو كشعر الكثير من أبناء عصره

ومن ذلك قوله :

كنت بخفض العيش فى رفعة معتدل القامة ظلى ظليل
فاحدودب الظهر وها أضلعى تعدّ والأعين منى تسيل

ومنه :

ساقي المدام دع المدام فكل ما فى الكأس من وصف المدامة فيكا
فعل المدام ولونها ومذاقها فى مقلتيك ووجنتيك وفيكا [2]

ومنه :

أسير بالجرعا أسيراً ومن همّي لا أعرف كيف الطريق
فى منحنى الأضلع وادى الغضا وفوق سفح الخد وادى العقيق

هذا وقد كان أبو الوليد بن الشحنة ممدّحا . وممن مدحه الجمال عبد الله بن محمد بن زريق المعرى ثم الحلبى . ولد سنة ٧٧٥ بالمعرة ونشأ بها ثم قدم مدينة حلب فاشتغل بها وتوفى سنة ٨٢٧ وكان فاضلاً أديباً ناظماً ناثراً محسناً ... قال فيه قصيدة مطلعها :

لم أدر أن ظُبَى الألحاظ والهدب أمضى من الهندوانيات والقضب

٣ — وأبو الوليد هذا كان يكنى بابن له اسمه الوليد كان آية فى الذكاء أديباً ناظماً ناثراً . توفى شاباً فى حياة أبيه حوالى سنة ٨٠٤ هـ

٤ — وأخوه فتح الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمود ولد سنة ٧٥٣ بحلب ونشأ بها . وأخذ عن أبيه وأخيه وغيرهما . وقدم القاهرة غير مرة . وناب عن أخيه فى قضاء الحنفية بحلب وكان ذا حشمة ومروءة وعناية بالأدب . وله نظم قليل منه :

يا سادتى رقّوا لرقّة نازح لفظته أيدى البعد عن أوطانه
والله ما جلتم بخاطر عبدكم إلا وفاض الدمع من أجفانه

(يتبع)

أحمد يوسف نجاتى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

(١) قال عنه فى شذرات الذهب : إنه عنى بطلب العلم فى كبره ودار فى الدروس واشتغل كثيراً ، لكن مع قصور فهم وقلة عقل وعناية بالعلم . ولى قضاء دمشق إحدى عشرة مرة فى مدة ٢٥ سنة أولها سنة ٧٧٩ وولى قضاء حلب وحماة مراراً ، وكان عفيفاً ، وأصيب فى الوقعة الكبرى عاله ، وأسرت له ابنة ، وتوفى سنة ٨٠٠

(٢) أخذ هذا المعنى وقصر فيه من قول ابن حيوس أبى الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس أحد الشعراء الشاميين المجيدين ، ولد بدمشق سنة ٣٩٤ وتوفى سنة ٤٧٣ :

ومهفهف يغنى النديم بوجهه عن كأسه الملأى وعن إبريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

وكلا الشاعرين عنى بالجناس واللف والنشر ، ولكن للمتقدم فضل السبق وإجادة السبك . وبيتا ابن الشحنة الأخيران مشحونان بمراعاة النظير والتوجيه بأسماء بعض الأماكن .

٣ ـ ابن خُرْداذَبَه

للأستاذ كوركيس عواد

لقد تطرق غير واحد من الكتبة والمؤلفين الأقدمين إلى ذكر هذا الكتاب، والكشف عن محاسنه ومساوئه. من ذلك ما حكاه المسعودي[1] بشأنه، نورده هنا استتماماً للموضوع، وإظهاراً لرأي مؤرخ وبلداني جليل، ارتآه في كتاب ثمين تتداوله الأيدي في يومنا. قال المسعودي:

« وقد ذكر عُبيد الله بن خرداذبه، في كتابه المترجم بالمسالك والممالك، أن الطريق من موضع كذا إلى كذا مقدار كذا من المسافة، ولم يخبر من الملوك والممالك، ولا فائدة في معرفة المسافات والطريق، إذ كان ذلك من عمل الفتوح وحمال الخرائط[2] والكتب. وذكر أيضاً أن خراج طساسيج[3] العراق كذا وكذا من المال، وهذا ما يتخفض ويرتفع ويقل ويكثر على حسب[4] الأحوال وتصرف الأزمان، وإن جبل العَرْج[5] الذي بين مكة والمدينة متصل ببلاد الشام، إلا أن وصله بالجبل الأقرع من بلاد أنطاكية وإن ذلك متصل بجبل اللكام[6]

(١) مروج الذهب (٢ : ٧٠ ـ ٧٢ طبعة باريس). وقد اختصر الحاج خليفة هذا الرأي في كشف الظنون (٥ : ٥١١ طبعة فلوجل)

(٢) الخرائط، مفردها الخريطة: وعاء مثل الكيس، من أدم أو خرق، يشرج على ما فيه من كتب ودراهم يبعث بها إلى العمال (أنظر: تاج العروس ٤ : ١٢٨ ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي (ص ٦٤ طبع ليدن)

(٣) الطساسيج، وأحدها الطسوج، بفتح الطاء وردت بعضها: لفظة فارسية بمعنى الناحية؛ وأكثر ما تستعمل في أرض السواد من العراق. وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجا (أنظر: معجم البلدان ١ : ٤١ طبعة وستنفلد، وتاج العروس ٢ : ٧٠، والألفاظ الفارسية المعربة لأدي شير ص ١١٢، والخزانة الشرقية لحبيب زيات ٢ : ١٠٥ــ١٠٦

(٤) في كشف الظنون: على حسن. وهو تحريف

(٥) تجد تفصيل ذلك في الصفحة ١٧٢ ـ ١٧٣ من المسالك والممالك

(٦) يعرف أيضاً بجبل اللكام

هذا عجيب من قوله، أما تراه علم أن أجزاء الأرض مماسة بعضها لبعض، متصلة غير منفصلة ولا متباينة مما بين بعضها ببعض إلا أن الأرض ذات وهاد وأنجاد وحدب. على أنه أحسن كتاب في هذا المعنى » اهـ. أو قوله الآخر[1] في هذا الكتاب:

« ومن كتبه[2] النفيسة، كتابه في المسالك والممالك، وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته، وإن تفقدته حمدته »

أو قوله الثالث[3] في هذا السِفر عينه:

« ... وقد صنف أحمد بن الطيب السرخسي[4]، صاحب يعقوب بن إسحاق الكندي، كتاباً حسناً في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها؛ وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني[5]، وزير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن احمد ابن أسد صاحب خراسان، ألّف كتاباً في صفة العالم وأخباره، وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة؛ وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه في كتابه المعروف بالمسالك والممالك، وهو أعم هذه الكتب شهرة في خواص الناس وعوامهم في وقتنا هذا »

وقد أشار ابن حوقل إلى هذا الكتاب إشارة خفيفة بقوله[6]:

« ولا يقاربُ هذا التأليف عنده (عند قارئ الكتاب أو الناظر فيه. والكلام هنا على كتاب صورة الأرض) كتاب الجَيْهاني ولا يوافق رسم ابن خُرَّاذاذبه ... »

(١) مروج الذهب (١ : ١٣ طبعة باريس)

(٢) الضمير يعود إلى بن خرداذبه

(٣) التنبيه والاشراف، ص ٧٥ طبعة دي غوى، أو ص ٦٥ ـ ٦٦ طبعة مصر،

(٤) لم يتصل بنا نبأ شيء من هذا الكتاب

(٥) كتاب الجيهاني الموسوم أيضاً بالمسالك والممالك، من المصنفات الضائعة في وقتنا. وللكتبة الأقدمين آراء وأقوال طريفة فيه، لا مجال لذكرها هنا.

(٦) كتاب صورة الأرض [المسالك والممالك] لابن حوقل، الطبعة الثانية التي نشرها كريمرز J. H. Kramers في ليدن سنة ١٩٣٨، ص ٥.

ولابن حوقل كلمة ثانية بشأن هذا الكتاب ، إلى القارئ نصها[1] : « وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر . وإذا الكتابان الأولان قد لزمنى أن أستغفر الله من حملهما واشتغالى بهما عن ما يلزمنى من توخى العلوم النافعة والسنن الواجبة ... » !

ومن الآراء الطريفة التى وقفنا عليها بصدد هذا الكتاب ، ماحكاه البشارى المقدسى بقوله ، وهو رأى تفرد به : « ومن مفاخر كتابنا (يعنى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) الإعراض عما ذكره غيرنا ، وأوحش شيء فى كتبهم ضد ما ذكرنا . ألا ترى أنك إذا نظرت فى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبة وبناه عليه ، وإذا نظرت فى كتاب ابن الفقيه[2] ، فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ[3] والزيج الأعظم ، وإذا نظرت فى كتابنا وجدته نسيج وحده يتيما فى نظمه[4] »

وكذلك ما ندد به البشارى المقدسى ، حين قال :

« ... وأما الجاحظ وابن خرداذبة ، فإن كتابيهما (فى المسالك والممالك) مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة[5] ... »

ومع ذلك ، وجدنا المقدسى ، ينقل غير مرة من كتاب ابن خرداذبة[6] .

ولم يكن المقدسى الوحيد بين الكتبة الأقدمين الذين عرفوا كتاب المسالك والممالك ونقلوا عنه نقولاً مختلفة ، بل هناك جماعة فعلوا فعله ، نذكر منهم : ابن رسته[7] ، وابن الفقيه الهمذانى[8] ، والمسعودى[1] ، وأبا الريحان البيرونى[2] ، وياقوتاً الحموى[3] ، والشريف الإدريسى[4] ، والمقريزى[5] ، والقلقشندى[6] .

أما ابن خرداذبة نفسه ، فقد وجدناه ينقل أحاديث عن بعض معاصريه من ذلك قوله (المسالك والممالك ص ٤٨) : وخبرنى الفضل ابن مروان ، والفضل هذا رجل من أهل البردان بالعراق استكتبه المعتصم وبلغ مقاماً رفيعاً فى الدولة ، ثم تقلبت به الأحوال بين صعود وهبوط ، فذكر الطبرى[7] أن المعتصم غضب عليه سنة ٢٢٠ وحبسه ، ثم ذكر[8] أن المتوكل عزله سنة ٢٣٤ عن ديوان الخراج ، وحكى فى مكان آخر[9] أن المستعين عزله سنة ٢٤٩ هـ عن ديوان الخراج

ومما أشار إليه ابن خرداذبة فى تقوله هذه العبارة ص ١٠٦ : فحدثنى محمد بن موسى ، وعبارته ص ١١٤ ، وحدثنى أبو بكر بن عمر القرشى وعبد الله بن أبى طالب القرشى من كورة تونس بالمغرب قالا . وقوله ص ١٦٢ — ١٧٠ فحدثنى سلام الترجمان ، وقوله ص ١٨٠ — ١٨١ وحدثنى أبو الفضل رائض بن الحارث بن أسد ، وقد ذكر الطبرى أباه الحارث بن أسد فى غير موضع من تاريخه[10] وقد يعمد ابن خرداذبة أحياناً إلى إغفال من ينقل عنهم والاكتفاء بالقول ص ١٧٨ : وحدثنى بعض من أثق به ، أو ص ١٨١ وحدثنى محدث أنه ...

(١) كتاب صورة الأرض « ص ٣٢٩ طبعة كريمرز »
(٢) هو كتاب البلدان . وقد طبع مختصره
(٣) كتاب البلدان للجاحظ ، من المفقودات فيما يظن . وقد نقل ابن خرداذبة عنه مرة واحدة (أنظر المسالك والممالك ، ص ١٧٠)
(٤) أحسن التقاسيم (٢٤١)
(٥) أحسن التقاسيم (ص ٥٠٤) . وفى كشف الظنون (٥ : ٥١٠ — ٥١١ طبعة فلوجل) رأى كأنه منقول من البشارى ويلاحظ أن اسم « الجاحظ » قد تحرف فى الكشف إلى « الحافظ » فليصحح .
(٦) أنظر أحسن التقاسيم ، فى الصحائف ٥٧ و ١٠٥ و ١٨٩ و ٢٢٢ و ٣٦٢
(٧) الأعلاق النفيسة (ص ١٤٩)
(٨) مختصر كتاب البلدان (ص ٢٠٣)

(١) مروج الذهب (٢ : ٣٢٦ طبعة باريس)
(٢) الآثار الباقية عن القرون الخالية (ص ٤١)
(٣) معجم البلدان (٤ : ٩٥ و ٦٠٢ طبعة وستنفلد
(٤) مختصر نزهة المشتاق طبعة رومة ، ص ٧٠ و ٣١٥) ، ومقدمة ابن خلدون (طبعة باريس ١ : ٩٣) فى الكلام على كتاب نزهة المشتاق للادريسى .
(٥) الخطط للمقريزي (مطبعة النيل ١ : ٢١٧ و٢٣٦و٢٦٢و٢٩٦ و ٢٩٧ و ٣٤٤ و ٣٦٦ و ٣٧١)
(٦) صبح الأعشى (٤ : ٣١٥ و ٤٠٢ — ٤٠٥) .
(٧) تاريخ الطبرى (السلسلة الثالثة ، ص ١١٨١ — ١١٨٦)
(٨ تاريخ الطبرى (السلسلة الثالثة ، ص ١٣٧٩)
(٩) تاريخ الطبرى (السلسلة الثالثة ، ص ١٥١٣)
(١٠) تاريخ الطبرى (السلسلة الثالثة ص ١٦٠٥ و ١٦١٩ و ١٦٥٧)

والآن بعد أن أطلنا الكلام على كتاب المسالك والممالك ، نعود إلى بقية مؤلفات ابن خرداذبة

٤ — كتاب الطبيخ

٥ — كتاب اللهو والملاهي في خزانة الأستاذ حبيب زيات(١) مخطوط عنوانه « مختار من كتاب اللهو والملاهي لابن خرداذبة » ولا ندري ما إذا كان هذا « المختار » للمؤلف نفسه ، أم أنه لشخص آخر . وليت صاحب المخطوط ، وهو الباحث الكبير المعروف بسعة اطلاعه وبعد تحقيقه ، يعني بنشره ، فيضيف بذلك مأثرة جديدة إلى مآثره العلمية الجمة

٦ — كتاب الشراب

٧ — كتاب الأنواء

٨ — كتاب الندماء والجلساء

والغريب أن هذه المصنفات الثمانية باستثناء المسالك والممالك لم نقف ألبتة على ذكر لها ، في ما سوى الفهرست لابن النديم . وهذا كشف الظنون للحاج خليفة ، وهو من أوسع المراجع التي تقفنا على الكتب ، لم يتطرق إلى تسمية شيء منها ، اللهم إلا المسالك والممالك ، وما قاله فيه لا يتعدى كونه رأياً منقولاً عمن سبقه ، كما أسلفنا القول في ذلك في موطن آخر من بحثنا

هذا ونحن على يقين من أن لابن خرداذبة تصانيف أخرى ، غير الثمانية المشار إليها أعلاه . فقد أورد المسعودي(٢) مقالة ابن خرداذبة في « الموسيقى » ، وهي التي قالها بحضرة الخليفة المعتمد

فهل تكون هذه «المقالة الموسيقية» فصلاً أو قطعة من أحد الكتب التي ألمعنا إليها ، أم أنها شيء قائم بذاته فات ابن النديم ذكره ، فكان نصيبه الخلود على يدي المسعودي ؟ ؟

وقد أثنى المسعودي ثناء عاطراً على « تاريخ » ابن خرداذبة الذي لا ذكر له بين الكتب المنوه بها آنفاً . وهذا قوله بالحرف الواحد(١) :

« ... وعبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ؛ فإنه كان إماماً في التأليف ، متبرعاً في ملاحة التصنيف ، اتبعه من هذه طريقته وأخذ منه ووطئ على عقبه وقفى أثره . وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير في التاريخ ؛ فإنه أجمع هذه الكتب جداً ، وأبرعها نظماً ، وأكثرها علماً ، وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها ... »

وهي لنعم الشهادة يصدرها مؤرخ جليل ثبت كالمسعودي !

وفي مكان آخر لمح المسعودي إلى « تاريخ ابن خرداذبه » . فقال بعد كلام نقلناه في مطاوي بحثنا ما هذا نصه(٢) :

« على أنه — أي كتاب المسالك والممالك — أحسن كتاب في هذا المعنى . وكذلك كتابه في التاريخ وما كان من ذكر الأمم الماضية قبل مجيء الإسلام ... »

(البقية في العدد القادم)

كوركيس عواد

(١) أنظر كتابه « الديارات النصرانية في الاسلام » (ص ١٢٨) وقد نقل من هذا المخطوط نبذة تجدها في الصفحة ٩٠ منه

(٢) مروج الذهب (طبعة باريس ٨ : ٨٨ — ١٠٢)

(١) مروج الذهب (طبعة باريس ١ : ١٣) . وقد اختصر قوله السخاوي في الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ١٥٥ — ١٥٦) ، والحاج خليفة في كشف الظنون (٢ : ١٠١ — ١٠٢ طبعة أوربة)

(٢) مروج الذهب (طبعة باريس ٢ : ٧٢)

٢٩ - المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل التاسع — اللغة والأدب والعلوم

تتألف السنة الهجرية من اثنى عشر شهراً قمرياً[1] ، ويتأخر التقويم القمرى عن التقويم الشمسى سنة فى كل ثلاث وثلاثين سنة ونصف تقريباً ، ولذلك لا يستعمل هذا التقويم إلا فى تحديد الأعياد الدينية والمواسم السنوية ؛ فلا يستعمل فى حساب الفلك ولا فى تحديد الفصول . وإنما يستخدم فيها التقويم القبطى .

وقد ذكرت فيما يلى الشهور القبطية بأسمائها الحديثة[1] مع ما يقابلها من التقويم الميلادى

توت	ويبدأ فى العاشر أو الحادى عشر من سبتمبر	برمهات	ويبدأ فى التاسع من مارس
بابة	« العاشر أو الحادى عشر من أكتوبر	برمودة	« فى الثامن من إبريل
هاتور	« التاسع أو العاشر من نوفبر	بشنس	« فى الثامن من مايو
كيهك	« التاسع أو العاشر من ديسمبر	بؤونة	« فى السابع من يونيو
طوبة	« الثامن أو التاسع من يناير	أبيب	« في السابع من يوليو
أمشير	« السابع أو الثامن من فبراير	مسرى	« فى السابع من أغسطس

ويلحق بالسنة القبطية خمسة أيام أو ستة تسمى أيام النسىء والشهر القبطى ثلاثون يوماً ، ويضاف إلى كل سنة من السنوات الثلاث المتتالية خمسة أيام، وإلى السنة الرابعة ستة أيام. والسنة القبطية الكبيسة تليها مباشرة سنة ميلادية كبيسة . فالسنة القبطية تبدأ فى الحادى عشر من سبتمبر فقط عندما يسبق هذا الشهر سنة قبطية كبيسة أو تلحقه سنة ميلادية كبيسة .

ولذلك تتشابه الأيام المتقابلة فى التقويمين القبطى والميلادى بعد شهر فبراير التالى . ويبدأ القبط تأريخهم من عصر دقلديانوس سنة ٢٨٤ م

ويقسم المصريون المحدثون السنة إلى ثلاثة فصول كما كان يقسمها أسلافهم وهى : الشتاء والصيف والنيل . ويستعمل الفلكيون تقويم الأبراج القمرية التى اعتاد أهل الجزيرة العربية تنظيم شؤونهم المتعلقة بالفصول عليها

ويبدأ الوقت المدنى فى مصر وغيرها من البلدان الإسلامية من غروب الشمس إلى الغروب التالى ، فيحسب الليل السابق مع النهار التالى ، وتسمي الليلة السابقة ليوم الجمعة مثلاً ليلة الجمعة

---

(١) جرى المؤرخون الأوربيون علي أن أول يوم فى الهجرة كان يوم الجمعة السادس عشر من يوليو سنة ٦٢٢ ميلادية ؛ إلا أن كوسان دى برسفال Coussin de Perceval فى كتابه : مقالة فى تاريخ العرب Essai sur l,histoire des Arabes بين خطأ ذلك . فالعام الهجرى الأول كان العام الحادى عشر بعد المائة من عهد كان العرب يستعملون فيه حساباً قمرياً شمسياً ناقصاً جاعلين العام الثالث من كل ثلاثة أعوام ثلاثة عشر شهراً قمرياً . وقد حرم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الطريقة فى الشهر الثانى عشر من العام العاشر للهجرة وقت الحج . ومن هنا يتضح أن العام الأول للهجرة بدأ على الأرجح يوم الاثنين التاسع عشر من إبريل سنة ٦٣٢ ميلادية ، وطبقاً لرأى كوسان دى برسفال تبدأ السنين العشرة الأولى للهجرة فى التواريخ التالية :

			سنة				سنة
العام الأول	الاثنين	١٩ إبريل	٦٢٢	العام السادس	الخميس	٢٣ إبريل	٦٢٧
« الثانى	السبت	٧ مايو	٦٢٣	« السابع	الثلاثاء	١٢ إبريل	٦٢٨
« الثالث	الخميس	٢٦ إبريل	٦٢٤	« الثامن	الاثنين	أول مايو	٦٢٩
« الرابع	الاثنين	١٥ إبريل	٦٢٥	« التاسع	الجمعة	٢٠ إبريل	٦٣٠
« الخامس	السبت	٣ مايو	٦٢٦	« العاشر	الثلاثاء	٩ إبريل	٦٣١

وهكذا يبدو أن الأعوام الأول والرابع والسابع كان يتألف كل منها من ثلاثة عشر شهراً قمرياً ، وأن العام السابع كان آخر هذه الأعوام وهكذا يبدأ الحساب القمري العادى بالعام الثامن ، ويمكننا أن نستخدم استناداً على هذا الرأى الجداول التى تشير إلى بدء السنين الهجرية ولكن لا ينبغى أن نعتمد على دقة هذه الجداول لأن بدء الشهر يحدد برؤية الهلال ولذلك يختلف باختلاف الأماكن ، ولم تبدأ السنة الهجرية من يوم هجرة الرسول صلعم من مكة كما يفترض أغلب مؤرخينا الذين بحثوا هذا الموضوع ، وإنما تبتديء من أول يوم للقمر أو من شهر محرم السابق لهذا الحادث . ويقال إن الرسول بعد أن ظل مختفياً مع أبي بكر ثلاثة أيام فى غار ثور بدأ هجرته إلى المدينة فى التاسع من الشهر الثالث أى ربيع الأول بعد ستة وثمانين يوماً من بدء هذا التاريخ

(١) وقد ذكرت الأسماء القبطية القديمة فى كتاب Horae Aegyptiaca تأليف R. S. Poole ص ٧ — ٩ ، وقد أشير فيه أيضاً إلى اشتقاقها من أسماء الآلهة المصرية القديمة فى ص ١٤ و ١٥ و ١٨

ويوافق غروب الشمس الساعة الثانية عشرة ، فتكون الساعة واحدة بعد غروب الشمس بساعة، والساعة الثانية بعده بساعتين، وعلى هذا المنوال يحسب الوقت حتى الثانية عشرة . وبعد الثانية عشرة صباحاً تبدأ الساعة واحدة مرة أخرى ، ثم الساعة الثانية وهكذا [١] . ويملأ المصريون ساعاتهم ويضبطونها عند الغروب عند ما يسمعون آذان المغرب على العموم ، وتضطرم طريقة حسابهم الوقت من الغروب ، إلى ضبط ساعاتهم كل مساء ، إذ أن الأيام تختلف طولاً وقصراً

ويبين الجدول الآتى أوقات الصلاة عند المسلمين[٢] مع ما يقابلها من الوقت الأوربى الظاهر عند الغروب على خط عرض القاهرة فى بدء كل منطقة من مناطق البروج

المواسم والأعياد الإسلامية والقبطية وغيرها وبعض الملاحظات والإرشادات المتعلقة بالفصول . ويلحق بالتقويم نتيجة طبية وزراعية لكل يوم من أيام السنة . ويشير التقويم إلى الخسوف والكسوف كما يشمل أموراً كثيرة، تلائم خرافات الشعب وتتضمن آثاراً من التقويم المصرى القديم . ويقوم بعمل هذا التقويم قسيس سورى مسيحي اعتنق الإسلام يسمى يحيى افندى[١]

وليس للمصريين معرفة بالجغرافيا إلا فئة قليلة أكثر ثقافة . ويكاد المصريون يجهلون موقع أكثر البلدان الأوربية الكبيرة جهلاً تاماً لعدم وجود الخرائط الجيدة . وقلما يجرؤ بعض المتعلمين منهم على إعلان كروية الأرض ؛ إذ أن أكثر علمائهم

	غروب				عشاء		فجر		ظهر		عصر	
	اسلامى		أوربى		اسلامى		اسلامى		اسلامى		اسلامى	
	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق
يونيو ٢١	١٢	٠٠	٧	٤	١	٣٤	٨	٦	٤	٥٦	٨	٣١
يوليو ٢٢ مايو ٢١	١٢	٠٠	٦	٥٣	١	٣٠	٨	٣٠	٥	٧	٨	٤٣
أغسطس ٢٣ ابريل ٢٠	١٢	٠٠	٦	٣١	١	٢٢	٩	٢٤	٥	٢٩	٩	٤
سبتمبر ٢٣ مارس ٢٠	١٢	٠٠	٦	٤	١	١٨	١٠	٢٤	٥	٥٦	٩	٢٤
اكتوبر ٢٣ فبراير ١٨	١٢	٠٠	٥	٣٧	١	١٨	١١	١٨	٦	٢٣	٩	٣٥
نوفبر ٢٢ يناير ٢٠	١٢	٠٠	٥	١٥	١	٢٢	١١	٥٩	٦	٤٥	٩	٤١
ديسمبر ٢١	١٢	٠٠	٥	٤	١	٢٤	١٢	١٥	٦	٥٦	٩	٤٣

يطبع فى مطبعة الحكومة ببولاق[٣] تقويم صغير سنوى ، ويشمل هذا التقويم السنة الشمسية منذ بدأ الاعتدال الربيعى إلى نهايته ، وأيام الأسبوع والشهور الإسلامية والقبطية والسريانية والإفرنجية مع الإشارة إلى حركات الشمس فى منطقة البروج وأوقات الشروق والظهر والعصر . ويصدَّر التقويم بنبذة فى أهم

على عكس هذا الرأى . والرأى السائد بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم أن الأرض مهاد يحيط به المحيط[٢] الذى يحده جبال (قاف) كما يزعمون . ويعتقد هؤلاء أن هذه الجبال هى ذروة الأرض السابعة ، كما يعتقدون أن السموات سبع طبقات تعلو إحداها الأخرى

فإذا كان هذا هو حال العلم عند المصريين المحدثين ، فلا يعجب القارئ إذا وجد بعد هذا الفصل فصلاً ضافياً يصف خرافاتهم . والإلمام بهذه الخرافات لازم ليتبين القارئ أخطاءها وليستطيع

(١) وبالتالى إذا طرحنا ساعة الظهر العربية فى يوم معين من ١٢ نحصل على ساعات الغروب الأوربية فى هذا اليوم

(٢) وقد ذكرنا هنا أوقات العشاء والفجر والعصر تبعا للحساب الأكثر شيوعا فى القاهرة (أنظر فصل الدين والشرع)

(٣) وقد طبع فى هذه المطبعة أكثر من مائة كتاب مدة زيارتى الثانية لمصر ، وكان أكثر هذه الكتب لاستعمال الجيش والبحرية ومستخدمى الحكومة . وقد طبع منذ ذلك الوقت فى المطبعة نفسها كتاب ألف ليلة وليلة وخطط المقريزى وعدة كتب أخرى على نفقة بعض الأفراد

(١) وقد استبدل أثناء مقامى الأخير بمصر بتقويم يحيى افندى تقويم آخر ألفه محمود افندى ، وهذا التقويم الأخير مطابق للأغراض الفلكية وأحسن من السابق وهو مشرف لمؤلفة أيضاً

(٢) كما كان يعتقد اليونان فى عهد هوميروس وهزيود Hésiode

هى والربيع . . .

العطر الأســـير

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

يَا رَبِيعَ الْكَوْنِ مَا ذَنْبِى إِذَا قَلْبِى جَفَا كَا ؟
الْهَوَى لَمْ يَسْقِنِى إِلاَّ خَرِيفاً مِنْ رُبَا كَا
فَأَنَا أَوْرَاقُ دَوْحٍ ذَابِلاَتٌ فى ثَرَا كَا
وَأَنَا آهَاتُ طَيْرٍ مُسْتَضَامٍ فى ذُرَا كَا
وَأَنَا عِطْرٌ أَسِيرٌ يَسْأَلُ اللهَ الْفَكَا كَا
أَطْلِقِينِى أَنْتِ ... إِنِّى كِدْتُ أَسْتَافُ الْهَلاَ كَا !

أَطْلِقِينِى وَاسْبَحِى مَا شِئْتِ فِى الدُّنْيَا بِفُلْكِى
لاَ تَخَافِى الْغَيْبَ ، إِنَّ الْغَيْبَ سِرٌّ شَعَّ مِنْكِ
فَإِذَا جَاءَتْكِ أَيَّامِى هَوْجَاءَ التَّشَكِّى
أَحْرِقِى فِى لَهَبِ النَّشْوَةِ إِيمَانِى وَشَكِّى
وَانْسَخِينِى قُبْلَةً تَبْحَثُ فِى جَنْبَيْكِ عَنْكِ
جَذْوَةٌ أَنْتِ وَقَلْبِى حَطَبٌ لِلنَّارِ يَبْكِى ...

مَا لِعَيْنَيْكِ وَضَوْءِ الْفَجْرِ نَاحَا فى خَيَالى !
أَأَنَا بَحْرٌ مِنَ الأَحْزَانِ نَشْوَانُ الضَّلاَلِ
كُلُّ مَنْ شَارَفَ مَوْجِى ذَابَ كَالْوَهْمِ حِيَالى !
أَمْ أَنَا كَالْحَبَبِ الْمَشْدُوهِ فِى كَأْسِ اللَّيَالى
زَالَ كَوْنِى وَتَلاَشَى كُلُّ شَىْءٍ فى ظِلاَلى
غَيْرَ طَيْفٍ مِنْكِ مَحْزُونِ الْهَوَى بَاكِى الْجَمَالِ ! !

محمود حسن اسماعيل

وجـــوه طريفة

للأســتاذ سيد قطب

طالعينى فى كل يوم بوجه … فلديك الوجوهُ شتى طريفه
وَافجَئِينِى لديك بالخطر المحبو (١) … بِ يُجَدِّدُ حياتَنا المألوفه
بِتُّ أشتاقه وأرقُبُ ماذا … يحملُ اليومُ من أمانٍ مَخُوفه !
كلُّ سَمْتٍ أراكِ فيه جميلٌ … كلُّ ظلٍّ أراكِ فيه شَفيفَه
أنتِ ما أنتِ ؟ عالمٌ مترامٍ … أَبْدَعَ الفنُّ والمنَى تأليفه
أنت كنزٌ فَفِيكِ تحيا طيوفٌ … كل طيفٍ له رُؤاهُ المُطِيفَه
تارةً أنتِ حرةٌ أصطليها … وإذا أنتِ كالرِّياضِ الوريفه
وَتَلُوحِينَ قطعةً من حنانٍ … وَتَلُوحِينَ بعد حِينٍ مُخِيفه !
وأرى فيكِ طفلةً لم تبارح … ملعبَ الطفلة اللَّعوبِ الخفيفه
وإذا أنتِ قهرمانةُ دهرٍ … مُوغلٍ فى المَسَارِبِ الملفوفه
وإذا ما انطويتِ أمسيتِ سِرًّا … صَانَهُ الدهرُ مُحْكِمًا تغليفَه
وإذا ما انطلقت مثلَ شُعَاعٍ … كنتِ رَقْرَاقَةً وكنتِ لطيفه
لكِ طعمٌ أذوقُهُ بل طُعُومٌ … كُلُّهَا نَاضِجٌ هَوِيتُ قطوفَه
هُوَ طَعْمُ الحياةِ فى فورةِ النُّضْجِ … شَهِيُّ الجَنَى خبرتُ صنوفه

(حلوان) **سيد قطب**

(١) نلاحظ أن هذا الشطر يزيد فيه سبب خفيف
(الرسالة)

أن يفهم طباع المصريين . وإنا لنتوقع لهذا الشعب تقدماً عظيماً من الناحية الفكرية والأخلاقية باقتباس العلوم الأوربية فى عهد محمد على ، ذلك الاقتباس الذى قوّم إلى حد ما سلطته الجائرة ، ولكن ليس من المحتمل أن يتحقق هذا الرجاء قريباً على مدى واسع (١)

عدلى طاهر نور

(١) لاحظ البارون هامر برجستال بحق أن هـذا الفصل ناقص ، وكان بودى أن أزيد فيه لولا شعورى بواجب التقيد برغبة القارئ . وأخشى أن أكون قد استنفدت صبره بتسجيل موضوعات لا تهم غير المستشرقين فلم أدون بناء على التعديل الأخير غير بعض ملاحظات قليلة سريعة نتيجة لما رأيته من أن العلوم الأوربية مقصورة على هؤلاء المستخدمين الذين أكرهوا على تلقى العلم من المدرسين الافرنج ، ومن أن العادات الأوربية لم يجرؤ على اتباعها غير بعض الأتراك . وقد صرح لى بعض المصريين الذين تلقوا علومهم فى فرنسا أنهم ما كانوا يستطيعون أن يسبغوا شيئاً مما تعلموه هناك فى عقول مواطنيهم حتى الأقربين إليهم



التشريع الاسلامي الدائم والمؤقت

كتب صديق الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت مقالاً فى عدد الرسالة الممتاز تحت هذا العنوان (الهجرة وشخصيات الرسول) وليس المهم فى هذا المقال تقسيم شخصيات الرسول ، فذلك أمر يعرفه كل العلماء ، وإنما المهم والجديد فى هذا المقال ما جاء فيه من توزيع أحكام الشريعة الإسلامية على تلك الشخصيات ، ومن جعل التشريع الدائم والمؤقت تابعاً لهذه الاعتبارات ، وهذا أمر جديد لم يظهر إلا فى عصرنا . وإذا أمكن الاتفاق عليه بيننا أمكن حل مشاكلنا التشريعية ، وزالت أكبر عقبة فى سبيل وضع تشريع إسلامى يفى بحاجات المسلمين فى هـذا العصر ، ولا يمكن أحداً أن يوجه إليه أى طعن .

وخلاصة ما يرمى إليه هذا المقال أن الذى يعد شرعاً دائماً هو ما يرجع إلى شخصية الرسول من العقائد وأصول الأخلاق والعبادات ، وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصية الإمام أو المفتى أو القاضى فليس بشرع دائم ، وإنما هو شرع مؤقت يمكن أن يتأثر بالاجتهاد ، وأن يترك العمل به لسبب من الأسباب . على أن لي فيه رأياً آخر لا أبديه الآن ، لأنا نريد الإصلاح من أى سبيل ينتهى بنا إليه ، ويحقق رغبتنا فى رفع شأن هذه الشريعة الغراء .

(عالم)

ابن علقمة وعبيد بين شعراء الجاهليين

أراد الأستاذ عبد المتعال الصعيدى فى مقال له عن الشعر الجاهلى (بالعدد ٤٥٤ من الرسالة) ، أن يدحض آراء بعض أدبائنا المعاصرين ممن يشكون فى نسبة هـذا الشعر إلى أصحابه ؛ ويزعمون أن بلوغه هذا الحد من الكمال والإتقان ممـا يخالف سنة النشوء والارتقاء

وقد رأى — فى صدد ذلك — أن يثبت وجود نوع من الشعر السقيم المختل الأوزان ، يعتده الخطوة أو الخطوات الأولى التى مهدت السبيل إلى ظهور هذا الشعر القوى الناضج الذى انتهى إلينا من أدب الجاهليين . ووقع اختياره على عَبيد بن الأبرص كنموذج للشعراء المتخلفين ، أو أصحاب الفِطَر السقيمة ممن سبقوا بوجودهم أرباب الشعر الرصين ، وضرب المثل فى ذلك ببائيته المشهورة — أقفر من أهله ملْحوبُ — فأورد عدةً من أبياتها ثم قال : « والحق عندى أن هذه القصيدة تمثل أولية الشعر العربى خير تمثيل ... وأن عبيداً فى هذا يمثل بين شعراء عصره حال الشاعر المتخلف ، لأنه لم يتهيأ له من أسباب النهوض ما تهيأ لهم ... »

وعجيبٌ حقاً أن نهبط بابن الأبرص إلى هذا الدرك الأسفل من منازل الشعراء ، وهو أحد العشرة الذين وقع الإجماع قديماً على تفضيلهم ؛ ولا تعد بائيته هذه عاشرة القصائد المأثورة فحسب ؛ بل يضعها بعض النقاد بين السبعة الأولى منها ، وهى المعروفة بالمعلقات . ومن هؤلاء ابن قتيبة صاحب كتاب «الشعر والشعراء»

وينفى تهمة التخلف عن عبيد أن جميع شعره — عدا هذه القصيدة — يجرى على الأوزان المعروفة فى قوة وجزالة تنهضان به إلى مصافّ كبار الشعراء من معاصريه ؛ فهو القائل فى الافتخار بمكارم خُلُقه :

لعمرُك ما يخشى الجليس تفحُّشى
عليـــه ولا أنأى على المتودِّد
ولا أبتغى ودَّ امرئ قلّ خيرُه
ولا أنا عن وصْلِ الصديق بأحْيَد

وقد سجل له صاحب (البيان والتبيين) قصيدة كريمة اللفظ والمعنى يقول فى مطلعها :

تلك عِرسى غضبى تريد زيالى ... ألبَيْنٍ تريد أم لدلال ؟
إن يكن طبّك الفراق فلا أحـ ... فِـل أن تعطفى صدور الجمال

ومما أورده له صاحب الأمالى قوله من قصيدة :

يا من لبرقٍ أبيتُ الليلَ أرقبه ... فى عارضٍ كمضىء الصبح لمـّاح
دانٍ مسفٍّ فويق الأرض هيدبه ... يكاد يدفعـه من قام بالراح

وأورد الخطيب التبريزى فى كتابه « شرح القصائد العشرة » — عند تعرضه لذكر عبيد — أن سعيد بن العاص سأل الحطيئة : من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

أفلِح بما شئتَ فقد يُبلَغ بالـــضعفِ وقد يخدع الأريب !

... فشاعر هذا شأنه ، وتلك منزلته عند النقاد والشعراء ، لا ينبغى أن يوصف بالتخلف ، أو ينسب إلى الجهل بإقامة الأوزان على نهجها الصحيح . وإنما الأقرب إلى الصواب — وذلك رأى

خاص يتقدم به — أن تكون هذه البائية إنما جاءت على وزن أو أوزان هجرتها العرب فى أواخر جاهليتها . والأوزان كانت — وما تزال — فى تطور مستمر ؛ ونحن لا نستسيغ منها إلا ما ألفناه وأكثر الشعراء من القول فيه . وإلا فمن منا يستسيغ هذا الوزن مثلاً ، وهى لابن تقي من وشاحى الأندلس :

يا ويح صبٍّ إلى البرق له نظرُ   وفى البكاء مع الورق له وطرُ

أو من منا يستسيغ قول (المهر بن الفرس) وهو من شعراء الموشحات فى غرناطة : .

لله ما كان من يوم بهيج   بنهر حمص على تلك المروج

ثم انعطفنا على فم الخليج   نفض مسك الختام ...

ونعود فنقول : إنه لو كانت بائية عبيد نموذجاً للاختلال كما وصفت ، لكان للقدماء عن اختيارها مندوحة . وفى أشعار عبيد مما استقام وصحت طريقته ما يغنى عنها ويجزىء ، وجميع شعره من هذا النوع كما ذكرنا . والبيت الوحيد الذى أورده الأستاذ — من غير القصيدة البائية — وجعله دليلاً جديداً على قصور الشاعر ، هو بيت صحيح الوزن كما سجلته كتب الأدب . وإنما أخل الأستاذ بوزنه حين حذف (التفعيلية) الأولى منه : (وقالوا) — ولعل ذلك سهو منه غير مقصود . وصحة البيت نقلاً عن حياة الحيوان للدميرى (باب الذئب) :

(وقالوا) هى الحمر تكنى الطلا   كما الذئب يكنى أبا جعدة

هذا عن عبيد ... أما علقمة الفحل فلا يقل عن صاحبه شأناً ؛ وما احتججنا به للأول نحتج به للثانى ، ثم نزيد عليه أن قصة تلقيب علقمة بالفحل — وهى مشهورة متداولة فى كتب الأدب — تعدّ الدليل الأقوى على تبرزه فى الشعر ؛ حيث يشيرون فيها إلى أنه احتكم مع امرىء القيس إلى امرأته (أم جندب) وأنشدها كل منهما لنفسه شعراً ، فحكمت لعلقمة على زوجها . حتى قال امرؤ القيس : ما علقمة بأشعر منى ولكنك له وامق . ثم طلقها فخلفه عليها علقمة ؛ وسمى بذلك (الفحل)

إلى هنا أقف الحديث ... ولعل الأستاذ الفاضل يهتدى إلى « الحلقة المفقودة » من الشعر الجاهلى ، فى أقوال شعراء آخرين غير عبيد وعلقمة ؛ والله أسأل أن يوفقنا وإياه

« جرجا » **محمود عزت عرفة**

اقتراح

أرى من واجبى الآن — وقد فرغتم من نشر اللائحة القيمة التى أعدها الأديب « كوركيس عواد » وضمنها ما استطاع الوصول إليه من المؤلفات العربية التى نشرت سنة ١٩٤٠ ، البالغ عددها ٣٩ كتاباً — أن أشكر للأديب الفاضل هذه العناية الفائقة ، ولمجلتكم الغراء نهجها القويم وحرصها على التراث العربى المجيد

إنى أرى أن النهضة الثقافية الأدبية ، القائمة فى هذا الوطن العربى تستند إلى عوامل منها بعث هذا التراث ، واقتباس الملائم النافع من أدب الغرب وثقافته ، ثم توليد شىء جديد . ولكن ما هدف هذا البعث وما فائدته ، إذا لم تصل الكتب إلى أيدى القارئين ؟ وأنى لها أن تصل وهم يجهلون أنها أصبحت ميسورة ؟ أما الكتب المدرسية والمترجمة من قصص وغيره ، فينتشر خبرها حالما تطبع وأحياناً قبل ذلك ، وخاصة إذا تولت طبعها دار للنشر تتبع أساليب الإعلان الحديثة ، أو كان مؤلفوها من مهرة التجار

ولذلك كان لا بد أن تتولى إحدى المؤسسات الثقافية فى العالم العربى إعداد ثبت سنوى بكافة ما تخرجه المطبعة العربية فى سائر الأقطار . ومما يسهل هذه المهمة أن كل من ينشر كتاباً فى أى قطر مكلف بتقديم نسخة واحدة منه أو أكثر إلى المرجع الرسمى المختص بذلك . وأظن أن دار الكتب المصرية هى هذا المرجع فى القطر المصرى ، وأعرف أن دائرة المعارف تمارس هذا الحق فى فلسطين

ولما كانت مصر تنتج من الكتب أكثر من غيرها بكثير ، فإن دار الكتب المصرية ، تسدى إلى نهضتنا المباركة جميلاً محمد عليه ، إذا هى اتصلت بالمؤسسات التى تمارس هذا الحق فى سائر الأقطار العربية وغيرها (فيما يتصل بالمطبوعات العربية) ، فحصلت على لوائح الكتب التى تصلها ، ثم جمعتها وصنفتها ونشرتها وسدت هذه الثلمة فى الأساس ، وأنارت السبيل للقارئين .

(القدس) **عصام الشريف**

نظرة فى ديوان الشبيبى

وقع فى كلمتى عن ديوان الشبيبى أغلاط مطبعية أرجو أن يكون كثير من القراء قد أدركوا صوابها . وهى :

١ — ولكن كان كل بيت تقع العين عليه يذكر بأن بيت الشبيبى . والصواب : يذكر بأنه ... الخ

٢ — ببغداد أشتاق العراق وهأنا
إلى الكرخ من بغداد جم التشوق

والصواب : أشتاق الشآم

٣ — وطموحاً إلى ما يبقى له من العزة والسؤدد .

والصواب : ما ينبغي له

٤ — ثم الأبيات الثلاثة :

نظرت بنى الدنيا فأصررت أنها
على الشر لا تنفك تجرى النحائت . الخ

هذه الأبيات قد وضعت في غير موضعها . وضعت في الكلام على حب الشاعر العراق ، وموضعها في الكلام على نظرات الشبيبي في الحياة

عبد الوهاب عزام

وفاة فيكتور مرجريت

توفى الكاتب الروائي الفرنسي المعروف فيكتور مارجريت في بلدة مونيستييه قرب فيشي وهو في الخامسة والسبعين من عمره . وقد ولد في الجزائر سنة ١٨٦٦ . وانتخب في سنة ١٩٠٦ رئيساً لجماعة رجال القلم وعين في سنة ١٩١٤ رئيساً لجمعية فيكتور هوجو، وكان في أثناء الحرب العظمى ضابطاً في هيئة أركان الحرب، وأسس جريدة « أنفورماسيون أونيفرسال » .

وقد لفتت مؤلفات فيكتور مارجريت عند أول ظهورها نظر البيئات الأدبية الفرنسية لأسلوبها الواقعي الصريح ، حتى أنه جرد من وسام « الليجون دونور » عندما نشر كتابه المعروف « لاجرسون » في ١٩٢٢ ، ومن مؤلفاته المشهورة : « البغى » ، و « فتيات » ، و « حدود القلب » ، و « الرفيق » ، و « جسمك لك » ، و « الماشية البشرية » ، و « نشيد الراعي » ، و « صوت مصر » ، وغيرها

بين بشر وتيمور

الدكتور بشر فارس كاتب منمّق وأديب ضليع ، لا تعدم في أسلوبه آبدة من أوابد اللغة كانت هائمة في المعاجم والأضابير قد أتى بها الدكتور مقيدة مكبلة ، فلولا القيد الذي به كُبّلت ، والوثائق الذي إليه شُدّت ، لنفرت شاردة وعادت كما كانت

والمعنى يتناوله الدكتور من جبهته ، ثم ينفضه أمامك فجاة فيدهشك تكويره وتحويره وتعجبك طرافته ، فهو يتهيأ لعمله الأدبي كما يتهيأ القناصون للخروج للصيد في أحراش أفريقيا ، أو طالب الحوت في بحار القطب . فلهم لباسهم الخاص وسلاحهم وعدته وعتادهم ، وكلما كانت الرحلة شاقة مضنية كانت الغنائم أعجب وأغرب . وكم في أسلوب الدكتور من طرف هي للقاعدين غرائب !

وهو حين يكتب في الفن ينقاد للمكته بعد أن يكون قد هيأ لها الجو على النمط الذي هفا إليه مزاجه كمن يريد ليلة حمراء فينسرب إلى الغرفة ذات اللون الأحمر والستائر القرمزية والضوء القانى الجريح ! وأما حين يكتب في النقد والبحث فهو يحمل تحت أبطه نخبة ما خطه جهابذة الاستشراق (والدكتور بشر سريعهم) وكلما خط سطراً فتح من آثارهم سفراً يستلهم منه نصاً أو يطوف بنص ، وقد تخلى عن نافذ بصره وصحصحان بصيرته ، وألقى على وجهه بردة سوداء كتلك التي يصطنعها المصور حين يتملى آلته من الداخل ليخرج (العفريته) فأمامه (أى المصوّر) الشيء مقلوباً ، وهو يعلم أنه لكذلك ما دام مالكاً لحسه ، أما إذا غفا أو سها فالمقلوب هو الأقوم !

ومن هنا جاءت نقدات الدكتور للأستاذ تيمور في مقتطف مارس ١٩٤٢ وتقويمه لبعض عبارات عامية وردت في قصة المخبأ رقم ١٣ يقول الدكتور بشر عن قصة تيمور : (ومن الغريب في هذا الصدد أن يقول ماسح أحذية « صوت فارى » ص ٨ من القصة والأقرب إلى الدارج «صوت فيرانى» ، هكذا النسبة إلى الفار عن السوقة) . إلى هنا انتهى كلام الدكتور . ولا شك أن الناقد الفاضل كان يستلهم هنا نصاً لمستشرق جهبذ ، فلو نظر بعينه هو وهى نفاذة نقادة لعلم أن تيمور هو الأصدق والأقوم ، (ولكن لعن الله بردة المصوّر) ، لأن المعنى هنا منسوب إلى الفقر لا إلى الفار كما توهم الدكتور ، ولم توجد قط السوقة التي تنسب النسبة التي يزعمها الناقد في مثل هذا الموضع ، وإن كان وجودها لا يستبعد في مقبل الأزمان !

ويقول الناقد في موضع آخر من المقال نفسه (ولربما أفلتت العامية من أنامله « أي أنامل تيمور » مثلاً «ساعتين والا أكثر» وهو يريد ساعتين مش زيادة) ، والحقيقة أن العامية هنا لم تفلت من أنامل تيمور ، والعبارة مستقرة لا تحاول إفلاتاً كما تشهد بذلك العامة ذاتها ، ولكن لم يرها الدكتور كذلك ، لأنه كما قلنا استطلع بردة المصوّر ثم سها . وليس معنا ردّنا أن قصة تيمور خالية من الشوائب ولكن الدكتور بشر قد طعن في غير مطعن

(القاهرة) **محمد فهمى**



من قصص الرأى

عبـــادة ...

للأستاذ محمد عنان

كل شيء كان يتعذب . . . الطيور فى ظل الأغصان فاغرة أفواهها تلهث ، والبهائم فى مرابطها تتألم فى استكانة وصمت ، والزبد يتناثر من أشـداقها فى لهثات مطردة متقطعة ، وأوراق الأشجار متراخية فى ركود وإعياء ، والحقل متمدد تحت لهب يوليو العنيف يتلوى ويرسل من جوفه أبخرة حارة تشارك السماء فى لعنتها على قطيع القرويين الهزيل الجائع الذى كان يروى هذه الأرض بعصير حياته

كانت أبالسة الجحيم تملأ الحقل ، والشمس فى كبد السماء تصلى الأرض بكل ما فيها من قوة وما فى عناصرها من آلام ، والهواء يهب ساخناً كاوياً يشوي الحياة ويخنقها ، ويدفع العرق غزيراً على الوجوه القروية الكالحة العابسة ، والأبدان الفـاترة الضامرة ، ويطفيء من جذوة نشاط الحركة التى كانت تنتج ما كلفوا القيام به من عمل . وكانوا يجاهدون ويغالبون فى صبر وجلد كحيوانات أضناها الجوع تحبو على بطونها إلى طعام بعيد

تحدثوا حتى فرغ كل ما فى جعبتهم من حديث ... اخترعوا حتى نضب خيالهم الجـاف . وارتفعت عقيرة إحدى الفتيات بالغناء ... ردده البعض وآثر الآخرون الوجوم . واشتد ضغط الحياة فتبدد الصوت ... وانتشر على البوتقة الرهيبة صمت مروع كان فيه احتكاك المهال بالشجيرات هو الصوت الوحيد لعجلة العمل الغشوم وهى تدور فى أبشع صورها وتحول فى همجية وقسوة خبزاً جافاً إلى ذهب

واخترق الصمت الحزين صوت رفيع يصيح ولا نبرات له . ماء ... ماء ....إن حلق يلتهب . وجاءت إحدى العاملات بالماء من أقرب المصارف آسنا ساخناً ، فتجرعوه فى نهم وعادوا يعملون كآلات فى جمود ورباطة جأش

السماء والأرض ، والهواء والماء ، الطبيعة والإنسان ، كل هذه الأشياء القوية الكبيرة تتآمر على هذا القطيع الهزيل المريض . إنها البربرية وسط هالة من نور !

قالت هذا فتاة فى العشرين ، لها لون القمح قبيل الحصاد ، ورقة زهر القطن فى الصباح الباكر ، ورشاقة عود الذرة الناضج ، وعذوبة ظل التوت فى اليوم القائظ ... ترتدي ملابس الركوب وتمتطى خيرة خيول القرية ، وعلى رأسها قبعة واسعة تخفى قليلاً تاجاً ثميناً من الشعر الفاحم . تتأمل فى إشفاق زمرة من الشباب والنساء والأطفال ينقون لطع دودة القطن فى ركن قريب من أركان الحقل المترامى

كان يبدو عليها أنها ترى الحقل لأول مرة ، لأنها ذعرت وهمت أن تناديهم بأن يكفوا عند ما سمعت بكاء خافتاً مجهداً لرضيع بالقرب منها فى ظل مظلة من العشب كان فى قفص من سعف النخيل مفروش بالقش يحرك يديه وساقيه فى عصبية ويبكى .

اندفعت من فوق جوادها فى جزع وقفزت فى لهفة القناة التى كانت تفصلها عنه تدفعها فى ثورة وجموح أسمى عواطف البشر

كان إنساناً ضئيلاً ، باهتاً ضامراً ، محتقناً فى لون الأرض ، تفوح من ملابسه الممزقة القذرة رائحة كريهة عفنة ، وتغطى الأوساخ وجهه وشعره وأطرافه . وكان يبدو أنه بكى كثيراً حتى أنهكه البكاء

انحنت على الفراش فى حنو بالغ كأم وحملته بين ساعديها ونفسها تذوب رفقاً وشفقة

همت بالغريزة أن تعطيه ثديها ولكنها تذكرت فانحنت عليه وقبلته .

ورأتهـا الأم فأسرعت خوفاً من أن يكون فى وجوده ما يؤذى . وجارت الدموع فى عينيها وهى تعدو توجساً من وقوع هم جديد . ولكن نظرة الفتاة الوديعة ، ونومة الطفل الهادئة بين أحضانها رفعت قليلاً كابوس الشر الجاثم على صدرها فاقتربت متمهلة وقالت وهى تنحنى مادة ذراعاً تأخذ بها الطفل

والأخرى على ثديها محاولة فى جهد أن تبتسم :

— العفو يا سيدتى ! لسنا فى هذا المقام

وتنبهت الفتاة إلى الأم وما هى عليه من إعياء فقاطعتها وهى تحتضنه وتبعده عكس اتجاهها :

— لا . لا ... دعيه لى الآن ... اجلسى . استريحى . لا ترضعيه . اتركيه لى ... إن لبنك الآن فى تسمم

فقاطعتها القروية فى سذاجة وشفتاها الجافتان تنفرجان عن شبح ابتسامة تائهة :

— إنها طفلة . و ... صمتت عند ما رأت صورة الهلع التى ارتسمت على وجه الفتاة وهى تعاود بسرعة النظر إلى الوجه الصغير الغارق فى الأقذار والدموع

— آه . طفلة ! ... ما أقسى هذا ؟ أهكذا تربى الأمهات ؟

واستطردت هامسة وهى تمسح على جبين الطفلة بمنديلها الصغير وتزداد بها تعلقاً والتصاقاً :

لماذا أحضرتها فى هذا المكان ؟ إنه يقتل فيها الإحساس بالعطف الأموى . إنه يصرع أنوثتها ويحولها إلى خانقة أطفال .

ثم رفعت رأسها وسألتها فى إشفاق وتأنيب :

— لماذا لم تتركيها فى المنزل وتظلى فى رعايتها ؟

فأجابت القروية المشدوهة :

— كيف ! والخبز يا سيدتى ؟

— وزوجك ؟ أليس لك زوج ؟

— ولكن أجره لا يكفينا

فقالت الفتاة فى حيرة :

— لكن ... ! يجب أن تفعلى شيئاً ... أى شىء ... ليكن مثلاً ... كم يبلغ إيرادك ؟

نخفضت المرأة رأسها فى حزن ... أحست بمزيج عجيب من السرور والألم يضطرب فى قلبها القاتم ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تسمع فيها حديثاً يتعلق بحياتها إذا كان لها حياة بالمعنى المفهوم ... واستيقظت أفكارها الراقدة المظلمة الراسبة فى قرارها الحزين ... وأخذت تصف للفتاة آلامها فى نبرة خافتة محرومة من كل صفات الأنوثة والحيوية

أخبرتها أن القرية فئتان : عمال ... وملاك . وأنها من الفئة الأولى التى تحيا تحت أقدام الأبقار وأطفالها يموتون جوعاً ، وأن أجر زوجها يتراوح بين القرشين والثلاثة يومياً ، وأنه يعمل ثلثى العام فقط ويقضى الباقى متعطلاً ، وأن لها عدا الرضيعة طفلة فى الخامسة ذهب الصديد ببصرها ، وطفلاً فى السابعة مريضاً لا يكف عنه المرض ؛ استعرض فى عمره الصغير آلام عدة أمراض لا يزال يعانى الآن بعضها ؛ ومات لها عدا ذلك ثلاثة أطفال . ولد الأول ميتاً ، وقضى الآخران فى سن الرضاع ... وقصت عليها بعض ما تعانيه فى سبيل التوفيق بين مطالب هذه الأسرة الكبيرة القابلة للتضخم وبين الأجر الذى تناله مقابل المجهود المزدوج ... هذا عدا ما يصيبها من ألوان القسوة وضروب المعاملة السيئة من زوجها . إنها تدرك السبب . وتعرف أنه يثأر لشقائه منها . كما تفرج هى عن نفسها أحياناً بالدموع وأخرى بضرب أولادها .

إن حياتها سلسلة طويلة ثقيلة شقية متشابهة الحلقات ؛ وإن الرضيعة فى قفصها المنكود أسعد حالاً منها ؛ فأمامها وقت تستطيع أن تموت فيه طفلة . ثم غلبها التأثر فقالت والدموع تنهمر من مآقيها :

— ما أشد قسوة العيش يا سيدتى ! على الأقل بالنسبة إلينا نحن الأمهات العاملات

أنصتت الفتاة إليها فى ذهول وصمت . وعند ما فاضت عينا القروية بالدموع أحست بجرح ساخن عميق يصيب كرامتها كامرأة ... وكالنائمة ... وأوضاع الحياة تتمرغ أمام عينيها — نفحتها فى خجل كل ما معها وعادت تسير بجوادها خبباً وكل ما حولها يتقلب ويلف فى رأسها ويدور

وروعت القروية . كان مبلغاً جسيماً جداً باعتباره منحة ؛ وأخذت تحدق فى الفضة التى تغمر قبضتها فى بلاهة وشك حتى أنها لم تجب زميلاتها فى التو عند ما سألنها فى فضول وهن يمددن أعناقهن من بين الشجيرات . بل كشفت عن رأسها وصدرها فى انفعال وعصبية ورفعت يديها ووجهها إلى السماء ، وفى صوت حار متهدج يمتزج بعبارات تنبعث من مكان عميق فى قلبها ، عبرات لم تسقط من عينيها من قبل ، أخذت تدعو للفتاة بطول العمر والستر وبلوغ المآرب وكل ما يملأ قلبها من أمانى الخير

وسرى خبر المنحة فى أنحاء الحقل سريان روح الربيع فى العود الجاف ، فأفاق من جموده قليلاً قليلاً ، ونهض ينشد الابتسام فى هذا النسيم الرقيق الملىء بالحنان والعطف ، ويصغى

فى شغف إلى موسيقى الحادث فتطربه ، ويلعب كل على هذا الوتر الرقيق الرفيق ما فى أمانيه وأحلامه من ألحان قصصية فطرية أضافت إلى الحقيقة سطوراً شعرية فاتنة

وحار سؤال على الأفواه : من تكون هذه المحسنة الصغيرة الجميلة ؟

ولم تدم الحيرة طويلاً بفضل (معوّض الجمال) ، وكان يتنقل بين الحقل والقرية ينقل محصول القمح إلى الجرن

أخبرهم وهو يتعالى على ظهر ناقته الضامرة أنها ابنة صديق لحامد بك مثرى القرية وسيدها الأول ... كان هـذا الصديق فى يوم ما مأموراً للمركز ، وهو اليوم أحد كبار موظفى الداخلية ، وأنها جاءت بناء على إرشاد طبيبها ، وستقضى بينهم وقتاً قد يكون طويلاً ... و ... والكثير مما أثبتت الأيام أنه كان من نسج خياله ، والنتيجة اللازمة لقلة العرض وإلحاح الطلب

ومن هذا اليوم تعودوا أن يروها عند ما يجب أن تظهر الملائكة فى أقسى ساعات العمل ، وفى حالات المرض والجوع والعرى التى كانت ترزح القرية تحت أعبائها الثقال ، وأصبح من المألوف لديهم أن يروها بينهم فى القيلولة ، عند ما يشتد ضغط الحياة وتتخلى عنهم السماء ، تلهو معهم بالعمل وتغنى وسطهم وهى تضحك ، وتنثر بحيويتها الفطرية زهور الربيع على أطلال خريفهم الكئيب الدائم ، وتملأ الحياة من حولهم مرحاً وابتساماً

وكثيراً ما كانت تشاهد فى أزقة القرية بين الأطفال تداعبهم فى لطف ، وتمتحن ذكاءهم فى براعة ، وتثير فيهم حب النظافة بالانتقاد الخفيف والمنافسة الهادئة . أو بين القرويات فى دورهن تساعدهن فى بساطة وألفة على تنظيم أثاثهن عند ما كن يقمن بذلك أثناء زيارتها لهن

وقد كانت تجلس وسط رهط منهن تحدثهن حديثاً عادياً شاملاً وأسنانها البيضاء تسطع من بين شفتيها الخلابتين فى ابتسامة مشرقة ، وهن من حولها يصغين فى انتباه والسرور والإعجاب يملأهن

وكان حنوها البالغ على المرضى من الأسباب القوية التى كانت تقضى سريعاً على اليأس والكآبة والمرض حتى أنه عرف عنها أنها لا تزور مريضاً حتى يشفى

ثم هى تغدق عطفها فى سخاء وغزارة منزهين عن الغرض ، وشعور صادر عن إحساس عميق صادق تدفعه فى حرارة رغبة روحية صافية لا تشوبها ذرة مادية . ومع أن قسوة الحياة وجمود البيئة جعلت من هـذه المخلوقات التعسة حيوانات ضارية فإن القلب الكبير وجد له صدى مضاعفاً فى القلوب المجدبة ... وقام هذا القطيع الكبير المنهك يستظل بحنانها ، ويستمتع إلى جوارها بالنور والدفء ، ويستمرئ طعم الحياة الحلو الذى فقد مجرد الإحساس بوجودها ... وقام كل يبحث بين طيات هذه النفس الواسعة عن معنى الخلجات الغامضة التى كانت تملأ نفسه ولا يستطيع إدراكها أو التعبير عنها ... هذه الرغبة فى عبادة الأكمل التى جعلت من الإنسان حيواناً راقياً ...

غمرت القرية روح عجيبة غيرت من كل شىء فيها ... وملأت هذه المخلوقة الصغيرة كل هذا الفراغ المترامى . . . حتى تكونت لهم أخلاق خاصة بها ، نفخت الألفاظ البذيئة التى كانوا يتنادرون بها عادة فيما بينهم ، وأصبحوا يعدون كل كلمة تفوه بها حجة لا تقبل الجدل وبنداً يضاف إلى بنود دستورهم الأخلاقى الجديد

قالت يوماً لقروية رأت ما عليها طفلها من الإهمال : إن الفقر ليس معناه القذارة ، وإن النظافة أقل أسباب الصحة نفقات ، وهى من ضروب الاقتصاد التى يجب أن تلازم الفقر ... فتضاعفت كمية الصابون الواردة إلى القرية بشكل لم يسبق له نظير فى تاريخها

وحدث أن هاج ثور من ثيران العمدة وأخذ يغدو ويروح بين الأزقة الضيقة وينطح كل ما يصادفه بقرنيه الشرستين ، واتفق وجودها فى الشرفة ورأت فى جزع حياة المارة المعرضة للخطر . فدفع هذا الجزع قرويا شابا كان مشهوراً بين زملائه بالاستكانة والضعف الجسمانى إلى المغامرة بحياته ... ويقول الذين رأوا الحادث إن الشاب امتلأ فجأة بنور كضوء القمر ، والتمعت عيناه كنجمتين وانقض على الثور الهائج معرضاً حياته لموت محقق ، وقبض على قرنيه وضغطهما فى قوة هائلة جعلت الثور يتراجع ويسقط على قائمتيه ؛ ثم ربطه فى حبل وقاده إلى مربطه بين الدهشة والضجيج . ومما هو جدير بالذكر أن الفتاة قدمت إليه بهذه المناسبة قطعة فضية ظل يحتفظ بها كوسام برغم الظروف العسيرة التى مرت به

وكان هذا الحادث سبباً فى زواجه من فتاة كان يحبها وكانت ترفضه .

وأشد من ذلك غرابة أن قوة الشاب البدنية أخذت من هذا اليوم تزداد ، ومظهره أخذ يبدو أكثر نظافة وأناقة . وأنا وإن

كنت لا أستطيع تفسير هذه الظاهرة تحليلياً إلا أنى لا أشك مطلقاً فى أن هذا الحادث كان سبباً لها

تحققت إذن كل خيالات القرية الجائعة في هذا الملاك الشهى واندفعت بكل رغبتها فى الخلاص وأملها فى التخلص تقيد الشموع وتشعل الباخر فى معبد أقامته من الأمانى قرباناً للمعبودة السمراء

لقد ارتفعت وارتفعت حتى وصلت إلى مصاف الأنبياء أو فوق مكانة البشر

وكان الحقل يظل عابساً أو كالعابس حتى تمر به كنسمة الحياة فى وادى الموت فينقلب عبوسه إلى طرب ووجومه إلى ابتسام وتحوله إلى جذوة من النشاط والحركة والمرح

وفى صباح خريفى رأوها كالعادة قادمة فى الطريق الضيقة الملتوية التى تصل الحقل بالقرية . تسير كالجدول الرقراق بجوادها الأبيض، يتبعها على جواد آخر شاب نظيف ممتلئ يطفح صحة وبشراً

حدثهم بالروح الطيبة التى اعتادوها فاطمأنوا إليه وازداد تعلقهم وتقديرهم واحترامهم لها عند ما ساعدها فى أدب جم (وهو لا يقل نظافة عن وكيل النيابة) على الترجل . وقابلوها بالإشراق والابتسام يملأ وجوههم . ووقفوا فى خشوع يعبرون بوجوه صامتة تختلج عن مقدار ما يملأ قلوبهم من الإخلاص والحب ؛ وظلت هذه الزيارة تملأ كنسيم العصر حديثهم طول اليوم

وفى المساء عند ما لفظ الحقل بقاياهم دفع الإعجاب الشديد قرويا فى سن الحلم إلى أن يلقى نظرة على الفتاة من وراء سياج حديقة المنزل وكان فى طريقه

ولم يكد يفعل حتى سمر فى مكانه واتسعت حدقتاه وشحب ، وأخذ يرتعد كالمحموم ويدعو زملاءه فى إشارات مجنونة وينصحهم بالصمت والحذر بوضع سبابته الحائرة على فمه المرتعش ؛ وكل من كان يأخذ مكاناً إلى جواره كانت تعتريه نفس الحالة . ولم تمض مدة حتى تكونت جمهرة ترتعد وراء السياج

كانت المعبودة السمراء تتمرغ بين ذراعى الشاب الذى رأوه معها فى الصباح يغمر وجهها وتغمر وجهه بقبلات حارة فائرة ، ويلتصق بها وتزداد به التصاقاً حتى تكاد تفنى فيه ، وبقايا الغروب تلقى عليهما لوناً حيوانياً ساخناً يضيء وجه الفتاة الملتهب ووجنتيها المتقدتين ، ويشمل الرغبة المنيفة المنبعثة من عينيها الغارقتين فى الأحلام ، ويسدل ستاراً كثيفاً على الوداعة الملائكية التى اعتادوها

ولما همت تسير مع الشاب متحاملة بكل جسدها على ذراعه عرت القوم جنة وذهبوا إلى القرية عدواً

وانطلق الخيال الخصب من عقاله ، وملأت الإشاعات بشكل مضاعف مجالس السمر ، على المصاطب ، وفى موارد المياه والمخابز . وملأ الحنق والغضب قلوب القرويين

وباتت القرية ترعد من الألم وتعصف بها قوة عاتية ، غاضبة ، حائرة !

وفى الصباح عند ما قدمت عليهم عرتهم رعدة قوية — على رغم أنهم كانوا ينتظرون هذا القدوم بصبر نافد — وتصبب العرق البارد على أجسامهم فى غزارة ، وتسارعت دقات قلوبهم وهم يخفون رؤوسهم بين الشجيرات ويراقبونها من وراء الأوراق بأنفاس مكتومة ونظرات مرتبكة . وأخذت تنطلق بين الفينة والفينة أصوات كالفحيح بعبارات ساخطة مبهمة فى يأس كالبكاء

ولما حيتهم والدهشة تعقد لسانها أجابها البعض بأصوات مختنقة وهم ينالون فى الاختفاء ، وصمت أكثرهم شجاعة إمعاناً فى الازدراء والاحتقار !

وبعد أن توارت وسط هذه العاصفة الصامتة وقف الشاب الذى قهر النور وهو يكاد يسقط وقد تهدلت تقاطيعه وعادت إليه فى الاثنتى عشرة ساعة الماضية هيئته الذليلة وسيماء المزق ، وصاح خطيبها ... أقسم أن زينب الخادمة قالت لى ذلك ... إنه حلال ! حلال ! وهى ستتزوجه . إنه زوجها . أقسم بالطلاق أنه زوجها !

وعصر قلبه ألم كبير لم يقدر على مقاومته . ولكن ما قاله برغم تناقضه وجد مرتعاً فى النفوس الظامئة الصابة ؛ فقد تحدث فى الوقت المناسب أثناء تعادل القوى النفسية المتدافعة . وكاد القوم يثوبون ويعدون خلفها يعفرون تحت أقدامها بالتراب وجوههم ؛ بل فكر البعض فى جعل التقبيل قبل الغروب سنة يجب أن تسنها شبيبة القرية ، ولكن زميلاً وقف يهدر وانفجر بصوت قوى كله حقد والشرر يتطاير من حوله ... ليكن خطيبها، زوجها ... أبوها ... إنها كانت تأكله ! إن عينيها حرقتانى وأنا وراء السياج ! لقد كانت تخدعنا هذه الـ . وهم أن ينعتها بأحط النعوت ، ولكن الكلمات ماتت على شفتيه ، وعاد إلى عمله وهو يكاد يضرب نفسه !

وعاد الحقل إلى صمته الحزين الأبدى !

(أبو حمى) محمد فناه

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين